

**المجالس الأدبية
عند العرب**

أفاق ثقافتك

رئيس مجلس الإدارة
محمد الأحمد
وزير الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول
تائرزين الدين
المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب

رئيس التحرير
أيمن الحسن

الإشراف الطباعي
أنس الحسن

تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد

محمد جميل الحطاب

المجالس الأدبية عند العرب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٨

آفاق ثقافية
العدد (٨)
٢٠١٨

المجالس الأدبية عند العرب / محمد جميل الخطاب. - دمشق:
الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٧م. - ٣٠٤ ص؛ ٢٠ سم.
(آفاق ثقافية؛ العدد ٨)

١- ٨١٠.٦ ح ط ١ م ٢- ٨١١.٠٠٩ ح ط ١ م
٣- العنوان ٤- الخطاب ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

مُقَدِّمَةٌ

المجالس الأدبية في تاريخ العرب أكثر من أن تُعدَّ أو تحصى. وهذه الدراسة تتويج لجهودٍ بُذلت على مدى خمسة أعوام تقدّم إعدادها القيام بجولة شاملة في آفاق الأدب العربي، وتاريخه، وسير المشاهير من رجاله والعوامل المؤثرة في تياراته وفنون الإبداع.

وهي دراسة مختصرة زاخرة بمحصّلات الصبر الطويل تحاول الحصول على صورة كاملة موحّدة تجمع الظواهر الأدبية في لوحة تامّة التنسيق والانسجام مهما بدت متنافرة متناقضة.

وقد حاولت ألاّ أدع حديقةً من حدائق شعر العرب دون أن أقطف منها ثمرة أو أحمل غصناً يغري بتلفُّت من بعد شمّ أو نظر.

وكما طرقت أبواب المجالس الأدبية الشهيرة لأفتح نوافذ الماضي واستثير مكنوناته وآثرت أن أطلق عليها تسمية «المجالس الأدبية عند العرب».

موضحاً الفروق بين البلاط والنادي والمجلس، وبادئاً بالحديث عن سوق عكاظ في الجاهلية، وسوق المربد في البصرة التي كانت أعظم أثراً وأكبر مساحة وأطول عمراً، والتي كانت مدرسة نما فيها الشعر وُبُنيت قواعد اللغة العربية وانتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن مجالس الغساسنة والمناذرة وما كان يدور فيها من مساجلات بين الشعراء، وقَدَّمت صورة واضحة عن مجالس الخلفاء في العصرين الأموي والعباسي من أمثال معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وهارون الرشيد والمأمون، ثم انتقلت إلى مجالس سيف الدولة الحمداني في حلب، والمعتمد بن عباد، والصاحب بن عباد. ولم أغفل مجالس شخصيات أدبية نسائية هامة من أمثال سكينه بنت الحسين عليه السلام وولادة بنت المستكفي ومي زيادة في العصر الحديث.

ومما لا شكَّ فيه أنَّ شعرَ المجالس قدَّم معلومات قيِّمة كشفت للباحثين مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية وسلَّطت

الضوء على ما كان يدور في هذه المجالس من أحداث بتنوع رواده على اختلاف ثقافتهم كاشفة عن الأنشطة الفنيّة والنقدية التي ساهمت على تواضعها بتمييز جيّد الشعر من رديئه.

مما دفع إلى تجديده وتحسينه والكشف عن بعض الملحوظات النقدية التي كانت في أغلب الأحيان في إطار النقد الانطباعي الذاتي الذي يعتمد على الذوق والفطرة.

وقد كان للشعر رعاية رسمية من قبل الخلفاء والأمراء وقادة الجيش بل ووجهاء القبائل، ساعدت هذه الرعاية على توسيع الرقعة الجغرافية لانتشار الشعر وتطوّر مواضعه. فكانت العطايا حافزاً مهماً في قصائد المدح الجليلة واحتراف مهنة الشعر؛ إذ كان للخليفة وغيره من كبار موظفي الدولة أثر في توجيه الشعر.

أمّا مفهوم الاحتراف فقد عني تنفيذ السياسة العامّة للخليفة الذي يحقُّ له التصرّف مع الشعراء تماماً كما يتصرّف بقادته العسكريين، فهو الذي يجدد الطريق الذي يسلكه الشاعر؛ ولذلك جعل الشاعر يحصر نشاطه في التعبير عن مواقف الخليفة.

وتذكر معظم الأبحاث أنّ الشاعر الكميّ كان أكثر الشعراء عطاءً إذ رُصد له سبعمئة وست قصائد ثمّ تلاه

الفرزدق الذي جمع له ستمئة وأربع قصائد حوت سبعة آلاف ومئتي وخمسة وثلاثين بيتاً شعرياً بينما حلّ في المرتبة الثالثة جرير بعدد خمسمئة وثلاث وثمانين قصيدة حوت خمسة آلاف وستمئة وأربعين بيتاً، ثم تلاهم عمر بن أبي ربيعة ومجنون ليلى والأخطل وأبو الأسود الدؤلي.

وكانت هذه المجالس مختبراً أدبياً حقيقياً فيه يكون الامتحان بطرح الأسئلة وانتظار الإجابة.

وقد كانت المراجع العربية عمادنا في عملية البحث والاستقصاء فشملت الدواوين والمجموعات الشعرية والأدبية والخطب والرسائل والمصادر الرئيسة ولعلّ أهمها كتاب الأغاني للأصفهاني وتاريخ الطبري ومروج الذهب للمسعودي والعقد الفريد لابن عبد ربّه والأمالي وزهر الآداب وكتب اللغة والنقد ومعجم الأدباء ووفيات الأعيان والكامل.

وقد عرفت تلك المجالس قبل الإسلام مثل مجلس قيس بن عاصم.

ومنذ فجر الإسلام أخذ الخلفاء والأمراء يعقدون المجالس الأدبية ويدعون لها أشهر الشعراء.

وقد اشتهر في هذا الصدد مجالس عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفي وسيف الدولة الحمداني والحسن البصري.

وكتب التراث مليئة بالحديث عن المجالس الأدبية التي كانت تعقد هنا أو هناك، وبما كان يدور فيها ويتخللها من نقاشات وحوارات، ثم ما ينتج عنها من حصيلة أدبية وثقافية.

وهناك مجالس أدبية خاصة، فلقد كان لأبي علي القالي العالم اللغوي مجلس أسبوعي في مسجد قرطبة يحضره من شاء من العامة، ومجلس آخر لأبناء الأمراء والأشراف، وهناك مجالس الأصدقاء والندماء، ومجالس الهزل والضحك والغناء، مثل مجلس «زرياب» و«ابن ماجة».

وقد ذكرت بالتفصيل في العقد الفريد وبهجة المجالس وأنس المجالس وغيرها، وكما تناول الدكتور طه حسين المجالس في العصر العباسي بالتفصيل في حديث الأربعماء «فقال: إنَّ مثل هذه المجالس قد أثَّرت في حركة الأدب والشعر والفكر تأثيراً كبيراً».

ثم انتقلت تلك المجالس إلى الشام ومصر، وسُمّيت
بالصالونات ومن أشهرها وأحدثها صالون «مي زيادة» ومجالس
مصطفى صادق الرافعي وعبّاس محمود العقّاد وطه حسين.

فعسى أن نكون قد أبرزنا القديم بوجه جديد، وأملنا أن
تكون دراستنا شاملة أودعناها كلّ ما استطعنا جمعه ليستغني
القارئ بها عن الرجوع إلى المصادر الكثيرة التي أخذنا منها
والتي يتضخّم بعضها ليصبح مجلّدات ومجلّدات.

هذه الدراسة مهمّة أدبياً وتاريخياً وحضارياً إذ تعتمد على
نتف وشذرات موزّعة بين صفحات المصادر العديدة لم يقيّض
لها سابقاً أن تجمع بشكل متكامل.

تنطلق من فكرة بسيطة من الأجواء الأدبية لترسم لوحة
مدهشة تتلاقى فيها ملامح الحضارة والأحداث التاريخية،
والتنافس الأدبي والانبهار أمام البليغ من الكلام، وقد جاءت
في ثوب موسوعي عني بالبحث عن الأجواء الأدبية خاصة
دون الوقوف طويلاً عند القيم الموضوعية والفنية في نصوص
هذا الأدب.

وإنّ من يطوف في رياض الفكر لا بدّ أن يتوقف عند حدائق
ظليلة بقيت طوال العصور متألّقة بجمال الأسلوب وإشراق
المعنى، تعكس بلاغة اللسان العربي وفصاحة اللفظ وحكمة
المنطق. وفي هذه الجولة الشائقة على رياض الأدب العربي
تجمّعت في شبكة الصياد حكايات وطرائف عاشت في ذاكرة
الأجيال وما تزال مشعّة بالذوق والحس المرهف والمشاعر
الصادقة تصوّر عصرها أصدق تصوير بكلّ اتجاهاته.

مفهوم المجالس

يقول ابن منظور في لسان العرب: الجلوس القعود. يجلس جلوساً، فهو جالس، من قوم جُلُوس وجُلَّاس وهو حسن الجلُسة، والمجلس: المصدر، والمجلس: موضع الجلوس. ﴿يا أيها الذين آمنوا وإذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فأفسحوا﴾. والمجلس: جماعة الجلوس، أجلسه: أقعده - جالسه: جلس معه فهو مجلس وجليس، والجمع جلساء.

الجلسة: مرّة الجلوس وحصّة من الوقت يجلس فيها جماعة مختصّون للنظر في شأن من الشؤون وهي مغلقة إذا لم يشهدا إلاّ أعضاءها ومفتوحة إذا شهدا معهم غيرهم. (ج) جلسات.

الجلسة: الكثير الجلوس.

الجلسان: الورد الأبيض.

الجليس: الكثير الجلوس.

ومعظم المعاجم القديمة أشارت إلى أنّ المراد بلفظة
(مَجْلِس) الناس والمكان معاً.

ويضيف صاحب أسرار البلاغة إلى معاني كلمة مجلس معنىً
دالاً على الهيئة حيث يقول: «ويقال: رأيتهم مجلساً: أي
جالسين»، أما المعاجم الحديثة فقد أوردت معاني بالكلمة
(جلس) بمعانيها وأضافت شيئاً من معانيها الوظيفية حيث
يقول صاحب المعجم الوسيط «المجلس: يقصد به مكان
الجلوس والطائفة من الناس تتخصّص للنظر بما يُنَاط بها من
أعمال ومنه مجالس الشعب ومجالس العموم ومجالس الأعيان».

الفرق بين المجلس والنادي

إنّ الباحث عن مادتي (جلس - ندى) يجد لهما مدلولين
متقارنين في المعاجم القديمة.

يقول ابن فارس: والنادي والنديّ: المجلس يندوا القوم
حواليه، وإذا تفرّقوا فليس بنديّ، ويقول في ذلك صاحب
اللسان^(١): والنادي كالنديّ، ولا يكون نادياً حتى يكون فيه

(١) ابن منظور - لسان العرب / مادة ندى.

أهله، فيقع على المجلس وأهله. قال تعالى: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾. (سورة العنكبوت).

وقال صاحب أساس البلاغة (الزمخشري)^(١): جلس في نادي قومه ونديهم وندوتهم ونداهم ولهم أندية وأنديات.

وأندوا، وتنادوا: تجالسوا. قال الشاعر:

وما يندوهمُ النادي ولكن لكلِّ محلَّةٍ منهم فئام (جماعة)

فالمعاجم القديمة جعلت المادتين مترادفتين في المعنى ولكن بعض المعاجم الحديثة جاءت أكثر تحديداً.

حيث جاء في المعجم الوسيط: والنادي أو المتدى مكان مهياً لجلوس القوم فيه^(٢)، والغالب أن يتفقوا في صناعه أو طبقه. ونادي الرجل: أهله وعشيرته. وفي التنزيل العزيز (فليدعُ ناديه) - ج أنديه ونوادٍ. ومن هنا يمكن أن نصل إلى ثلاث قضايا:

أولها: أن كلمة مجلس تطلق على المكان والجماعة.

(١) الزمخشري - أساس البلاغة.

(٢) المعجم الوسيط - ج ٢ - ص ٩١٢.

أمّا النادي فلا تطلق على المكان إلاّ إذا كان الناس مجتمعين فيه.

ثانياً: أنّ ما يجمعهم في هذا المجلس هو رابط معيّن كأن يكونوا أدباء أو شعراء أو مجالس سياسية.

ثالثاً: أنّ مادة جلس أوسع وأشمل في المدلول اللغوي من مادة «ندی».

مفهوم البلاط الأدبي

لكلمة بلاط جذر عربي وآخر أجنبي. أمّا الأجنبي فيتحدّر من أصل لاتيني، إذ تعني كلمة القصر، أو البيت الكبير نسبة إلى palatin وهو جبل كانت تقوم عليه مساكن أغنياء الرومان. وبهذا المعنى استخدمت كلمة البلاط القصر للحديث عن مقرّ إمبراطور الروم أيام هارون الرشيد.

يقول المسعودي عن ريني والدة قسطنطين السادس: إنّها انتُزع منها المُلْك وهو بلاط بنته في القسطنطينية، ويضيف: والبلاط: القصر^(١).

(١) المسعودي - مروج الذهب - ج ٣ - ص ٣٧١.

إلّا أنّ للكلمة جذراً عربياً^(١) هو البلاطه وتعني القطعة المستوية من الصخر أو الرخام وما إلى ذلك. ومنها استخدمت كلمة «البلاط» للدلالة على متن الأرض المستوي الصلب.

وقيل: دار مبلّطة وصحنٌ مبلّط. ومن باب تسمية الكلّ باسم الجزء تم تسمية المكان باسم ما يفرش به. ومع التوسّع في الاستعمال عنت كلمة بلاط: الصحن المبلّط والدار المبلّطة ثمّ صارت تدلُّ على المكان الواسع الذي يجتمع فيه الناس.

وحُصّصت كلمة بلاط بقصر الملك، وارتبط المعنى المكاني بمعنى إنساني يدلُّ على وجهة استعمال البهو المبلّط لاجتماع الناس وعقد الجلسات ومن هنا يكون مفهومنا للبلاط الأدبي هو هذا المعنى المؤسسي للكلمة.

الصالون الأدبي: تشير بعض المراجع إلى أنّ الصالونات عرفت في بداية الدولة الأموية وازدهرت في عهد الدولة العبّاسية ولا سيما في قصور الخلفاء والأمراء والولاة. وكانت هذه المجالس تستقبل العلماء والأدباء والشعراء والمفكرين

(١) ابن منظور - لسان العرب.

والبلغاء وتشهد سجلالات فكرية وثقافية أسهمت بلا شك في التطوُّور الثقافي ونشر المعارف والعلوم المختلفة في المجتمع.

كما أنّ هذه المجالس الثقافية كانت - كما أشارت كتب التراث - تمتاز ببعض الآداب الخاصة والتقاليد المعيّنة التي يجب أن يراعيها أولئك الذين كان يُسمح لهم بحضورها. وليس هذا فحسب فقد كان للمرأة نصيب ومشاركة جيّدة في هذه المجالس الثقافية. وهذا ما أشار إليه بعض الكتّاب بقوله: «وكثيراً ما كانت الأديبات من المسلمات يعقدن المجالس الأدبية لدراسة الأدب والشعر، ونقد الشعراء، والموازنة بينهم. ومن هؤلاء السيّدة سكينه بنت الحسين، وولادة بنت المستكفي»^(١). وما الصورة الحالية للمجالس الثقافية إلاّ امتداد لتلك الصورة القديمة التي عُرفت بها تلك المجالس مع بعض التعديلات والتغييرات التي تفرضها ظروف الزمان والمكان بين حين وآخر.

وفي هذا المجال أفضل أن نستعمل كلمة «مجالس ثقافية» بدلاً من تسمية «صالونات ثقافية» لأنّ كلمة صالون أجنبيّة الأصل، وعرّبت بكلمة «صاله» في حين أنّ لها معاني مختلفة في اللغة

(١) منير البعلبكي - قاموس المورد - بيروت.

الأجنبية وهو ما أشار إليه قاموس المورد، حيث أورد في معنى كلمة salon أن المقصود بها البهو أو الصالون الأدبي الذي يعقد دورياً في قصر رجل أو امرأة ويجتمع فيه أدباء وفنانون وسياسيون وقد يكون معرضاً للوحات الزيتية والتماثيل... إلخ.

وأضاف أنه قد يُقصد به «حانه» أو سَيارة مقفلة، تتسع لـ ٤ - ٧ ركاب وليس هذا فحسب بل إنَّ لكلمة صالون دلالات مختلفة في واقعنا الاجتماعي ولا تشير مباشرةً إلى المعنى المقصود بالتسمية. فقد تدلُّ على مكان الحلاقة، وقصَّ الشعر كما أنَّها تدلُّ على صالة المنزل، الأمر الذي يجعل تسمية هذه المجالس بالصالونات الأدبية تسمية غير دقيقة وغير صحيحة إلى حدٍّ ما. فكان علينا أن نصحَّح التسمية بأن تكون المجالس الثقافية بدلاً من الصالونات الثقافية.

صورة عكاظ في العصر الجاهلي

قبل الحديث عن سوق عكاظ لا بدّ من تقديم لمحة موجزة عن العصر الجاهلي والقصيدة العربية الجاهلية، والمعلّقات، وأيام العرب، ووضع مكة، ومكانتها في الجاهلية والانتقال بعد ذلك إلى الحديث عن أسواق العرب عامّة وسوق عكاظ خاصة.

العصر الجاهلي:

ذهب أكثر الباحثين إلى القول أنّ الجاهلية هي عصر الجهل والهمجية بيد أنّ الحقيقة خلاف ذلك، فالجاهلية في المعنى الصحيح هي ذلك العصر الذي لم يكن لبلاد العرب فيه ناموس وازع، ولا نبي ملهم، ولا كتاب منزل.

ومن الخطأ أن نصف بالجهل هيئة اجتماعية امتازت بالثقافة والحضارة وقطعت في ميدان التجارة والأشغال شوطاً بعيداً وذلك قبل الإسلام بقرون متطاولة.

وقد ورد لفظ الجاهلية في القرآن الكريم أربع مرات: (سورة آل عمران ١٥٤ - المائدة ٥٠ - الأحزاب ٣٣ - الفتح ٢٦).

وتتضمن لفظة العرب بمعناها الواسع سكان الجزيرة على الإطلاق أمّا معناها الخاص فمقصود على عرب الشمال.

وقلّ أن نجد بين أمم الأرض شعباً كالعرب في شدة إعجابهم بالأدب وتأثرهم بالكلام الأنيق الذي يلقى في مجالس الخطابة، ولهم شغف كبير بجمال اللغة سواء رأوها مكتوبة أو سمعوها بأذانهم.

وإذا فاخر الإغريقي بما عنده من تماثيل الفن ومنشآت الهندسة فالعربي يرى قصيدته أفضل ما يعبر عن خلجات نفسه الداخلية، ومن أمثال العرب (جمال المرء في فصاحة لسانه).

والأدب العربي برز إلى الوجود بانفجار شعري ظهر إلى الوجود وهو يكاد يكون تام النمو منذ أول ظهوره، ويبدو

أنَّ أقدم القطع الشعرية التي تحدّرت إلينا نظمت قبل الهجرة بما يقارب المائة والثلاثين حولاً، وذلك في أثناء حرب البسوس.

إلاَّ أنَّ لهذه القصائد الأولى سنناً وأساليب متعارفة تنمُّ عن زمن نشوءٍ طويلٍ قطعت فيه صناعة الأداء أشواط التطوُّر، والتحسُّن الأولى حتى نمت قوى اللغة فيها وبرزت في حلَّة راقية.

وللشعراء الذين نبغوا حوالي منتصف القرن السادس آثار لم يستطع أحد بعدهم نظم أجود منها ولقد حفظ الرواة هذه القصائد وتناقلوها بطريقة السماع إلى أن انتهى الأمر بها ودُوِّنت في القرن الثاني والثالث الهجري.

ويمكن أن يعتبر النثر المسجَّع الذي ابتكره الكهَّان والعرفاءون خطوة أولى في سبيل ابتداء الفن الشعري، ولعلَّ الخطوة الثانية هي الحُداء أي إنشاد حُداة العيس.

ولا يُستبعد ما افترضته تقاليد العرب من أنَّ أصل الشعر هو محاولة حادي العيس الإنشاد على خطى ناقته.

وقد نشأ الرَجَز وتقطيعه مستفعلن مكرَّرة ستّ مرات. وهو أقدم بحور الشعر وأبسطها. ولقد قيل بهذا المعنى: (الرجز بكر

الشعر، والسَّجْع أبوه، والحُداء أمُّه). وقيل: (سُمِّي بذلك
لأضطرابه تشبيهاً بالرَّجَز في الناقة داء يصيب الإبل في إعجازها
فإذا ثارت ارتعدت أفخاذها ثمَّ انبسطت).

كان الشعر في عصر البطولة الوسيلة الوحيدة للتعبير الأدبي
عن الأفكار، وكانت القصيدة الطراز الأمثل والأوحد في الفن
الشعري، ويحكى أنَّ المهلهل المتوفى (٥٣١م) وهو بطل تغلب
في حرب البسوس كان أول من نظم القصائد الطوال، ومن
المحتمل أنَّ القصيدة أخذت ترتقي بمناسبة أيام العرب
وخاصة بسبب الوقائع بين قبيلتي تغلب وكندة.

ومن رجال القصيد امرؤ القيس المتوفى (٥٤٠م) وهو
قحطاني وينتمي إلى كندة، ومع أنَّه من أقدم الشعراء فإنه
يعد أمير الشعر في نظر الأكثرين. أما عمرو بن كلثوم
التغلب المتوفى نحو (٦٠٠م) فلقد كان تغلباً من ربيعة في
أرض الشمال.

ولقد ظهرت القصائد في الأدب العربي فجأة كظهور أشعار
هوميروس، ولم تظهر على صفحات التاريخ إلا وهي خاضعة

لأحكام وسنن ثابتة، من مطلع لا نتعداه ووصف للدار،
واستيعاب للصحب، ووصف للأطلال، ونسيب وذكر
للمرحلة على ظهر الناقة والمعاناة من الأهوال ثم تناوب الصور
والرؤى فإذا بالشاعر يذكر فروسيته وأفعاله وكرم محته
وعراقة نسبه ومفاخر قبيلته.

ولطول القصائد متوسط يبلغ الخمسة والثمانين بيتاً يذكر
الشاعر في ختامها غرضه من نظمها وقد يكون ذلك الغرض
محسوراً بفضيلة ما يريد أن يمدحها أو وصف لقتال أو هجاء
لخصم أو مديح لعظيم يطلب رفته.

المعلقات:

وتحتلُّ المعلقات السبعُ المقام الأول بين قصائد الجاهلية
كلِّها^(١) وما تزال لها الحظوة الكبرى في العالم العربي كله. وقد
ورد في الروايات أن كلاً من هذه المعلقات استجيدت، ونالت
قصب السبق في سوق عكاظ السنوية وأنها راققت الناس
فكتبت بهاء الذهب وعُلقت على أستار الكعبة.

(١) السيوطي - المزهر - القاهرة - ج ٢ - ص ٢٤٠.

ويُفهم من الأخبار أنّ نشأة المعلّقات كانت مقرونة بسوق عكاظ التي أقيمت بين نحلة والطائف والحجاز سنة تلو أخرى فجاءت كناية عن مجّمع أدبي أمّته فحول الشعراء تتبارى بأشعارها للفوز. ولم يكن للشاعر مجد أعلى من الفوز في هذه السوق. وليس بين نائلي جائزة نوبل اليوم من يزيد عن فخر أولئك في عكاظ الجاهلية^(١).

مكّة:

واسم مكّة الذي أورده بطليموس بصيغة مكورتا مشتق من الاسم السبئي مكورابا ومعناه: مقدّس أو محرّم. ويستفاد من هذا الأصل أنّ مكّة كانت في أول عهدّها مقاماً دينياً وهي واقعة في تهامة الحجاز الجنوبي على بعد ثمانية وأربعين ميلاً من البحر الأحمر، في وادٍ صخري وصفه القرآن الكريم بأنّه (وادٍ غير ذي زرع) وقد وقعت مكّة في وسط طريق القوافل ما بين مأرب وغزة وهي طريق تجارة الطيوب في عصر دول الجنوب، فكانت محطة للآتين من جنوب الجزيرة وللمتحدّرين

(١) د. فليب حتي - تاريخ العرب - ص ١٣٦.

من شأها وكانت الأسواق تنصب فيها للبيع والشراء، فمهر أهلها في شؤون التجارة وما يتعلّق بها من مرافق ووظائف. وجعلوا مدينتهم مركز عمران وثروة.

وفي غزوة بدر (١٦ آذار ٦٢٤م) كانت قافلة للمكّيّين راجعة من غزوة فيها ألف بعير، ومعها من المال خمسون ألف دينار، على ما رواه الواقدي، ولما عاد المسلمون بعد غزوة بدر بالأسرى الذين وقعوا في يد النبي من المكّيّين افتدتهم مكّة بأربعة آلاف درهم للرجل. وكان تجار مكّة يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً. فأصبحت مكّة جمهورية صغيرة تجارية يرأسها الموسرون من أكابر قريش ومقدّمها الذين أتاحت لهم موارد التجارة ومناصب البيت الحرام جاهاً ووسائل للترف على أوسع نطاق.

يقول ابن الأنباري: سمّيت مكّة لأنّها^(١) تمكّ الجبارين أي تُذهب نخوتهم. ويقال: إنّما سمّيت مكّة لازدحام الناس بها من قولهم: قد امتكّ الفصيل ضرع أمّه إذا مصّه مصّاً شديداً وسمّيت بكّة لازدحام الناس بها، ويقال مكّة اسم المدينة وبكّة اسم البيت.

(١) ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج ٥ - ص ٢١٥.

وقال آخرون: مكّة هي بكّة والميم بدل الباء كما قالوا: ما هذا
بضربة لازب ولازم، وقال الشرقي بن القطامي: إنّها سمّيت
مكّة لأنّ العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتمُّ حجُّنا حتى نأتي
مكان الكعبة فنمكُّ فيه أي نصفر فيه صفيّر المكّاء حول الكعبة،
وكانوا يصفرون، ويصفقون بأيديهم إذا طافوا بها.

والمكّاء بتشديد الكاف طائر يأوي الرياض، قال أعرابي ورد
الحضر فرأى مكّاءً يصيح فحنَّ إلى بلاده فقال:

ألا أيُّها المكّاء مالك ها هنا

ألاءٌ ولا شايح فأين تبيض

فأصعد إلى أرض المكاكي واجتنب

قرى الشام لا تصبح وأنت مريض

والمكّاء: بتخفيف الكاف والمد: الصفيّر. فكأنّهم يحكون
صوت المكّاء. ولمكة عدّة أسماء غير ذلك وهي بكة والنساسة وأم
رحم وأم القرى ومعاذ والحاطمة لأنها تحطم من يستخفُّ بها،
والحرم، وصلاح، والبلد الأمين والعرش والقادس لأنّها تقدّس
من الذنوب أي تطهر والباسّة لأنّها تبسُّ أي تحطّم الملحدّين.

أيام العرب في الجاهلية:

أيام العرب في الجاهلية مصدر خصيب من مصادر التاريخ وينبوع صافٍ من ينابيع الأدب ونوع طريف من أنواع القصص بما اشتملت عليه من الوقائع والأحداث وما رُوي في أثنائها من نثر أو شعر، وقد ذكر الرواة والمؤرخون أكثر من سبعين يوماً كانت بين القبائل ربيعة وتميم وقيس وكنانة وضبة وبين القحطانيين والعدنانيين وبين العرب والفرس.

سوق عكاظ:

أنشأ العرب أسواقاً لهم يتبايعون فيها. ولعلّ هذه الكلمة - كما ذكر ابن سيده - اشتقت من سوق الناس بضائعهم إليها، ولا يستدعي وجودها في اللغات السامية أن تكون كلمة السوق العربية مأخوذة منها؛ فلعلّ الواقع هو العكس، أمّا عروض التجارة التي تُحمل إلى الأسواق فأكثرها لا يتعدى التمر والزبيب والسمن والأدم والورس^(١) والغالية والبرود وبعض ضروب الحيوان كالمواشي والأنعام والخيل حتى القروذ أحياناً.

(١) الورس: نبت لتلوين الملابس الحريرية - الغالية أخلاط من الطيب والمسك والعنبر.

وقد حملت هذه الحركة التجارية كثيراً من ألوان الترف إلى العرب وكان لا عهد لهم بمثلها؛ فتغالى أشرافهم بالثياب، والبرود والسلاح والطيب. بل إن الرواة ليذكرون أن خمراً حملت من بصرى وغزة من بلاد الشام إلى سوق مجنّة قرب مكة. ويظهر أن العرب اعتادت استجادة الخمر، والافتتان بشرها واستطابتها من معادنها المشهورة. شاع ذلك في الرجال والنساء. يروى أن امرأة أرسلها زوجها إلى عكاظ بسمن ومعها راحلتان فشربت الخمر بثمان السمن فاستطابتها ثم باعت راحلتها فشربت ثم رهنت ابن الرجل وشربت أيضاً.

ونحن نعلم أن كثيراً من الشعراء والفتيان كانوا يمتدحون بالإنفاق على الخمر والتردد على أصحاب الحوانيت والجلوس إليهم. ونذكر في هذا المجال أبيات عنتره:

ولقد شربت من المدامة بعدما

ركد الهواجر^(١) بالمشوف المعلم

(١) الهواجر: جمع هاجرة وهي نصف النهار - المشوف: الإناء المجلو - المعلم: ما عليه علامة - الأزهر: الأبيض ويعني به الإبريق - المغدّم: ما عليه الغدام وهي المصفاة.

بزجاجةٍ صفراءٍ ذات أسرّةٍ
قُرنت بأزهر في الشمال مفدّم
فإذا شربت فإنني مستهلك
مالي وعرضي وافر لم يكلم

أو قول الأعشى: (وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني... إلخ).
والظاهر أنّ حب الخمرة تغلغل في نفوس عامة العرب،
وغمرت بحوانيتها أسواقهم وعكفوا عليها حتى ما يستطيعون
لها تركاً، وإنّ الأعشى الشاعر أراد أن يقصد النبي (ﷺ) فيسلم
وأشفق مشركو مكة من هذا السلاح أن ينضم للإسلام فصدّوه
عن وجهه، وكان أقوى عامل في ردّه ما أخبروه من أنّ الإسلام
يحرّم الخمرة، ولم يكن بالشاعر قدرة على تركها فصرفه ذلك عن
قصده، وقفل راجعاً فأدركته المنية ولم يكتب له الإيمان^(١).

(١) كان الظرفاء من الفتيان إذا أرادوا الشراب خرجوا إلى قبره وأدار
الساقى عليهم الكأس وجعل قبر الأعشى أحد الشراب، فكان إذا
بلغه أراق الكأس عليه - يصبون الخمر على قبره إذ قال لما أخبره أبو
سفيان بأنّ محمداً يحرّم الخمر (ارجع إلى اليامة فاشبع من الخمر) -
الأغاني - ج ٩ - ص ١٢٧.

وقد ذكر العلماء أسماء الأسواق التي كانت تعقد والتي بلغ عددها ستاً وعشرين سوقاً أهمها وأشهرها سوق عكاظ^(١). عكاظ هي المعرض العربي العام أيام الجاهلية، معرض بكل ما لهذه الكلمة من معنى لدينا نحن أبناء هذا العصر، فهي مجمع أدبي لغوي رسمي، له محكمون تُضربُ عليهم القباب، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم، فما استجادوه فهو الجيد، وما بهرجوه فهو الزائف .

وحول هذه القباب الرواة والشعراء من عامة الأقطار العربية. فما ينطق الحكم بحكمه حتى يتناقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة في أغوار الجزيرة وأنجادها، وتلهج بها الألسن في البوادي والحواضر.

يحملُ إلى هذه السوق التهامي والحجازي والنجدي والعراقي واليامي واليمني والعماني كل ألفاظ حيّه ولغة قطره، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلاً واصطفاءً حتى يتبقى الأنسب الأرشق، ويُطرح المجفؤ الثقيل.

(١) ورد في عكاظ الصرف وعدمه، والمنع هو الأشهر والأكثر.

وهي السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة، يُحمل إليها من كلِّ بلدٍ تجارته وصناعته كما يحمل إليها أدبه، فإليها يُجلبُ الخمر من هجر والعراق وغزّة وبصرى والسمن من البوادي ويردُّ إليها من اليمن البرود الموشاة والأدم وفيها الغالية وأنواع الطيب وأدوات السلاح.

ويباع فيها الحرير والوكاء والحذاء والزبيب والسلاح والزيوت، ويعرض فيها كثير من الرقيق الذي ينشأ عن الغزو وسبي الذراري فيباع فيها بيع المتاع التجاري^(١).

ويبيع فيها كلِّ غازٍ سلبه، وكثيراً ما يكون هذا البيع سبباً في قتل صاحبه إذا أبصر السلاح أحدٌ من ذوي المقتول فعرفه. وكانت تجارة فارس يصل منها أشياء إلى عكاظ.

(١) من ذلك أنّ أم عمرو بن العاص كانت سبيّة بيعت في عكاظ عرفنا أمرها في خبر طريف يقصّه ابن عبد ربه: (خاطر رجل إلى أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول: أيُّها الأمير: من أمّك: ففعل. فقال له: النابغة بنت عبد الله أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل فولدت فأنجبت فإن كانوا جعلوا لك شيئاً فخذه) - العقد الفريد - ج ١ - ص ٦٣.

فإنَّ النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق
عكاظ كلَّ عام لطيمة (وهي في الأصل العير المحمّلة مسكاً) في
جوار رجل شريف من أشرف العرب يجيئها له ويحميها
من كلِّ معتدٍّ حتى تصل سالمة إلى عكاظ فتباع هناك ويشترى
بثمنها ما يُحتاج إليه من أدم (جلود) الطائف وسائر المتاع
في عكاظ من حرير وعصب مسيّر، بل إنَّ عكاظ
نفسها مشهورة بما يعرض فيها من جلود حتى قالوا:
(أديم عكاظي) نسبة إليها.

حتى البضائع المجهولة الأصل المعروضة في عكاظ تجد من
شرائع القوم وأعرافهم التي التزموها ما يجعلها كاسدة لا يرغب
فيها أحد. فهذا بعض لصوص العرب: (قرب إبلاً للبيع في سوق
عكاظ فلما عرضها قيل له: ما نارك؟ «أي ما سمة إبلك؟» وكانوا
يعرفون علامة كلِّ قوم التي يسمون إبلهم بها، ويعرفون كرمها من
لؤمها. فلما كثر ذلك عليه أنشأ يقول:

يسألني الباعة أين نارها

إذ زعزعتها فسمت أبصارها

كُلُّ نَجَارٍ إِبْلِ نِجَارُهَا

وَكُلُّ نَارِ الْعَالَمِينَ نَارُهَا^(١)

وهي معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية، فيها هنا قسّ بن ساعدة يخطب الناس، يذكر الخالق ويعظهم بمن كان قبلهم ويأمرهم بفعل الخير، وهذا عمر بن الخطاب في الجاهلية يصارع^(٢). وثمة كاهن عرّاف وعائف وقائف وقرد وغنم وصحيفة وكاتب.

وهناك أناس من غواة الشهرة، هذا يمدُّ رجله ويُشد شعراً، وآخر يأتي عكاظ بيناته ترويحاً لزواجهن، وأناس قدموها ليختاروا من يتزوَّجون.

قال المرزوقي: (كان في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب، كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيّد والحلّة الحسنة والمركوب الفاره فيقف وينادي عليه ليأخذه أعزُّ العرب يريد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة ويُحسنُ صلته وجائزته.

(١) بلوغ الأدب - ج ٢ - ص ١٦٣.

(٢) طبقات ابن سعد - ج ١ - ص ٢٣٥.

وهي أيضاً ندوة سياسية عامة، تُقضى فيها أمور كثيرة بين القبائل، فمن كانت له إتاوة على قبيلة نزل عكاظ فجاؤوه بها، ومن أراد تخليد نصرٍ لحيه فعل عمرو بن كلثوم فرحل إلى عكاظ وخلده فيها شعراً، ومن أراد إعلان حرب على قوم أعلنه في عكاظ.

وكانت هذه السوق تقوم من العرب يومئذ مقام الجريدة الرسمية في أيامنا هذه، فمن أتى عملاً شائناً تأباه مروءة العربي شهبوا أمره بعكاظ، ونصبوا له راية غدر^(١) فعرفوه فلعنوه واجتنبوه .

ومن أراد التبرؤ من قريب لسبب ما تبرأ منه علناً، ذكروا: (أن قيس بن الحدادية من شعراء الجاهلية كان شجاعاً فاتكاً صعلوكاً خليعاً وقد جرّ على قومه خزاعة عتاً وإرهاقاً كبيراً، فخلعته خزاعة بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها بخلعها إياه فلا تحمل جريرة له ولا تطالب بجريرة يجزها أحد عليه)^(٢).

(١) إذا غدر رجل بجاره أوقدوا الناس ثم صاحوا: هذا غدره فلان ليحذره الناس، وهدد زهير بن أبي سلمى بني عبد الله ابن غطفان إن لم ينصفوا بقوله: وتوقد ناركم شرراً ويرفع لكم في كلّ مجمعة لواء. - بلوغ الأدب - ج ٢ - ص ١٦٤.

(٢) الأغاني - ج ١٢ - ص ٢٠.

وإذا أطلق لقب على أحد في عكاظ عُرف صاحبه به، وجرى له مجرى اسمه واسم أبيه. قاتل أبو ربيعة بن المغيرة من قريش يوم شُرب (وهو من أيام عكاظ) برمحين فسُمِّي ذا الرمحين، وثبتَ في هذه الحروب من قريش أولاد أمية بن عبد شمس الستة وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو فسُمُّوا (العنابس) والعنابس: الأسد، وغني عن البيان أيضاً ما يدَّخره الصغار الذين يصطحبهم أهلهم إلى عكاظ من ذكريات عن تلك السوق لا تنسى.

وعكاظ نخل في وادي بين مكة والطائف وموقعها جنوب مكة إلى الشرق. تقوم السوق في مكان منه يعرف بالأثداء فيه مياه ونخل. ولا شك أن أرضاً اتسعت بعضُ أجزاءها لمعارك عِدَّة أرض فسيحة واسعة.

أمَّا اشتقاق عكاظ، ولم سمِّيت بهذا الاسم فقد ذهب اللغويون فيه مذاهب. وقلَّبوا الكلمة على معانيها المختلفة فالقهر والحبس وردَّ الفخر والتجادل والتحاج كلُّ هذه معانٍ للعكظ وكلُّها صالحة لأن تُعلَّل بها التسمية.

جاء في لسان العرب^(١): عكظ دابته يعكظها عكظاً: حبسها. وتعكَّظ القوم: إذا تحبَّسوا لينظروا في أمورهم. وعكظ الشيء يعكظه: عركه. وتعاكظ القوم: تعاركوا وتفاخروا. قال الليث: سميت عكاظاً لأنَّ العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضاً بالمفاخرة أي يدعك.

كانت هذه السوق تبدأ من أول ذي القعدة وتستمر حتى العشرين منه. فينزل السوق قريش وهوزان وغطفان وخزاعة والأحباش وطوائف من أفناء العرب يؤمونها من العراق والبحرين واليمامة وعمان واليمن وسائر أطراف الجزيرة.

تقيم العرب أيامها في عكاظ يتهيئون للحج ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون ويتقارعون ويتنافرون ويتعاضمون^(٢).

ولم يكن مجمع للعرب أحفل من عكاظ، فكانوا يضربون بكثرة أهلها المثل. وبقيت لها هذه الشهرة بعد الإسلام، فقد

(١) ابن منظور- لسان العرب - ج٧ - ص ٤٤٥ - دار صادر.

(٢) المفاخرة: أن يتحاكم اثنان في أيهما أبأوه أكثر مفاخرة. والمنافرة: أن يتحاكما في أيهما أعزَّ نفراً من صاحبه والمعاظمة: أن يتحاكما في أيهما أعظم مصيبة. والمقارعة: شبيهة بالمنافرة.

جاء في الأمالي: إنَّ عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب لما سئل عن قتله علياً قال: ضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ لقتلتهم.

وكما كان يقوم بأمر الحكومة عامة فيها بنو تميم، وكانت الحكومة في الشعر للنابغة الديقاني وهذه أمثلة مما كان في عكاظ سياسة ومنافرة وفداء أسرى وأدباً وحرباً ومتاجرة.

١ - منافرة:

اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ وقدم أمية بن الأسكر الكناني، وتبعته ابنة له من أجمل أهل زمانها فخطبها يزيد وعامر فقالت أم كلاب امرأة أمية: من هذان الرجلان؟ فقال: هذا يزيد بن عبد المدان وهذا عامر بن الطفيل. فقالت: أعرف بني الديان ولا أعرف عامراً. فقال: هل سمعت بملاعب الأسنّة؟ فقالت: نعم. قال: فهذا ابن أخيه. وأقبل يزيد يفاجر خصمه، فقال: يا أمية إنَّ ابن الديان صاحب الكتيبة ورئيس مذبح ومكلم العقاب، ومن يصبّ

أصابعه فتنطف دماً، ويدلك راحتيه فتخرجان ذهباً. فقال
أمية: بخ بخ! مرعى ولا كالسعدان^(١) فأرسلها مثلاً.

فقال يزيد: يا عامر! هل تعلم شاعراً من قومي سار بمدحةٍ
إلى رجل من قومك؟ قال: اللهم لا. قال: فهل تعلم أن شعراء
قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي؟ قال: اللهم نعم.
قال: فهل لكم نجم يمان أو برد يمان أو سيف يمان. قال: لا.
قال: فهل ملكناكم ولم تملكونا؟ قال: نعم. فنهض يزيد وأنشأ
يقول مخاطباً أبا البنت:

أمي يا بن الأسكر بن مدلج
ولا تجعلن هوازناً كمدحج
ما النبع في مغرسه كالعوسج
ولا الصريح المحض كالمزج

فزوج أمية يزيد بن عبد المدان ابنته. ثم لجّ التهاجي
بين الرجلين.

(١) في مجمع الأمثال للميداني: السعدان أخثر العشب لبناً وإذا خثر لبن
الراعية كان أفضل ما يكون وأطيب وأدسم.

٢- في سبيل بغى:

وافى معاويةُ بن عمرو بن الشريد عكاظ في موسم من مواسم العرب، فبينما هو يمشي بسوق عكاظ إذ لقي أسماء المريّة وكانت جميلة، وزعم أنّها كانت بغياً فدعاها إلى نفسه فامتعت عليه وقالت: أما علمت أني عند سيّد العرب هاشم بن حرملة؟ فأحفظه فقال: أما والله لأقارنّه عنك، قالت: شأنك وشأنه. فرجعتُ إلى هاشم فأخبرته بما قال معاوية وما قالت له. فقال هاشم: لعمري لا نريم أبياتنا حتى ننظر ما يكون من جهده.

ثمّ مضى عام وأصاب قوم هاشم غرّةً من معاوية فقتل في خبر طويل^(١). وكان بين الحيين يوم حوزة الأول ويوم حوزة الثاني ويوم ذات الأثل ويوم ملحان وهي من أيام العرب المشهورة الطافحة أدباً وشعراً ورجزاً. ولها الفضل في إتخاف اللغة العربية بأكثر قصائد الخنساء لأنها أخت معاوية هذا وأخيه صخر. فلهذه الأيام قالت الخنساء أبلغ الرثاء في الشعر العربي.

(١) أيام العرب في الجاهلية - محمد أحمد جاد المولى - دار إحياء التراث

العربي- لبنان - بيروت ١٩٤٢ - ص ٢٩٠.

قالت الخنساء ترثي أخاها معاوية:

أريقي من دموعك واستفيقي^(١)
وصبراً إن أطقت ولن تطيقي
وقولي إن خير بني سليم
وفارسها بصحراء العقيق
ألا هل ترجعن لنا الليالي
وأيام لنا بلوى الشقيق
وإذ نحن الفوارس كل يوم
إذا حضروا وفتيان الحقوق
وإذ فتيا معاوية بن عمرو
على أدماء كالجمل الفنيق
فبكيه فقد أودى حميداً
أمين الرأي محمود الصديق
فلا والله لا تسلاك نفسي
لفاحشة أتيت ولا عقوق

(١) معنى هذا أن الدمعة تذهب اللوعة.

ولكنني رأيت الصبر خيراً
من النعلين والرأس الحليق^(١)
وفي رثاء صخر:

أعيني جوداً ولا تجمداً
ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميل
ألا تبكيان الفتى السيّد
طويل النجاد رفيع العما
د ساد عشيرته أمرداً
إذا القوم مدُّوا بأيديهم
إلى المجد مدَّ إليه اليد
فقال الذي فوق أيديهم
من المجد ثم مضى مُضِعداً

(١) قال في الكامل تأويل النعلين أنّ المرأة كانت إذا أصيبت بحميم جعلت في يديها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها؟.

فترى الحمد يهوي إلى بيته
يرى أفضل الكسب أن يُحمدا

٣- خطة غدر:

لقي زرعهُ بن عمرو بن خويلد النابغة بعكاظ، فأشار عليه
أن يشير على قومه بقتال بني أسد وترك حلفهم، فأبى النابغة،
فبلغه أن زرعهُ يتوعدُه فقال من قصيدة:

نُبِّتُ زرعَةً والسفاهةُ كاسمها
يهدي إليَّ غرائب الأشعار
فحلفتُ يا زرعَ بن عمرو إنني
رجل يشقُّ على العدو ضراري
أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني
تحت العجاج فما شققت غباري
أنا اقتسما خُطِّتينا بيننا
فحملتُ برَّةً واحتملت فجار

وهكذا لم يمنع للتهديد قاضي الشعراء في عكاظ. بل التزم
الوفاء وشهَّر بهذا الذي يريد أن يحملهُ على الغدر تشهيراً يدرك
عارهُ كلُّ من في عكاظ.

٤ - معازمة في المصائب:

أيام حوزة والأثل وملحان ذهبت بوالد الخنساء عمرو بن الشريد وبأخويها صخر ومعاوية فطفقت الخنساء تبكي قتلاها ولا تزداد على الأيام إلا إعظاماً لمصبتها فقرّحت أجفان الناس بما بكت على هؤلاء، وخاصة أخاها صخرًا.

انحدرت هذه الشاعرة العظيمة إلى عكاظ تسجّل فيها رسمياً أنّها أعظم العرب مصيبة فليس أحد أصيب بما أصيبت، فكانت تنزل كلّ عام على هودج سوّمته لتلفت إليها الأنظار، وجرّت على هذه العادة أعواماً ثمّ كانت وقعة بدر التي انتصف فيها الإسلام من مناوئيه، وقُتل فيها من أعدائه صناديد قريش: عتبة بن ربيعة وشيبه بن ربيعة والوليد بن عتبة، فأقبلت هند بنت عتبة ترثيهم، وبلغها تسويم الخنساء هودجها في الموسم ومعاظمتها العرب بمصبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية، وأنها جعلت تشهد الموسم وتبكيهم، وقد سوّمت هودجها براية وأنها تقول: (أنا أعظم العرب مصيبةً) وأنّ العرب قد عرفت لها بعض ذلك. فلما أصيبت هند بما أصيبت به وبلغها ذلك قالت: (أنا أعظم من الخنساء مصيبةً) وأمرت بهودج فسوّم براية وشهدت الموسم بعكاظ وجعلت تندب قتلاها بقولها:

من حسّ لي الأخوين كـ
غصنين أو من رأهما
قِرمان لا يتظالما
ن ولا يُبرام حمهما
ويلى على أبويّ والـ
قبر النذي وارهما
ولا مثل كهلي في الكهول
ولا فتى كفتاهما..... إلخ

وقالت: اقرنوا جملي بجمل الخنساء، ففعلوا، فلما أن دنت منها قالت لها الخنساء: من أنت يا أختي؟ قالت: أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبةً وقد بلغني أنّك تعاضمين العرب بمصيبتك فبم تعاضمينهم؟ فقالت الخنساء: بعمرو بن الشريد، وصخر ومعاوية بن عمرو، وبم تعاضمينهم أنت؟ قالت: بأبي عتبة بن ربيعة وعمي شيبة بن ربيعة وأخي الوليد بن عتبة. قالت الخنساء: أو سواء هم عندك؟! ثمّ أنشدت تقول:

أبكي أبي عمراً بعينٍ غزيرةٍ
قليلٌ إذا نام الخليلُ هجوْدُها
وصنويٌّ لا أنسى معاوية الذي
له من سراة الحرّتين وفودها
وصخراً ومنذا مثل صخر إذا غدا
بساهمة الأطال قبّبا يقودها^(١)
فذلك يا هند الرزيّة فاعلمي
ونيران حرب حين شبّ وقودها
فقلت هند تجيبها:

أبكي عميد الأبطحين كليها
وحاميهامن كلّ باغ يريدنا
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي
وشيبةٌ والحامي الذّمّار وليدها

(١) السهامة: الضامرة- الأطال: جمع إطل: وهو الخاصرة- والقب: وهو الدقيق الخصر الضامر البطن.

أولئك آل المجد من آل غالبٍ

وفي العزّ منها حين ينمى عديدها

وأمرُ هندٍ والخنساء هذا في عكاظ من أغرب ما يؤثر في باب التنافس واعتناء الناس بمصائبهم واهتمامهم بالتنويه بها، وتخليدها في آدابهم ومحافلهم العامّة، ولعلّ هذا المنظر منظر تينك السيدتين بلباسهما الأسود وجمليهما المسوّمين أطرفُ منظر شهدته عكاظ^(١).

٥ - إتاوة:

كان لزهير بن جذيمة العبسي إتاوة على هوازن، وكان إذا كانت أيام عكاظ أتاها زهير ويأتيها الناس من كلّ وجه فتأتيه هوازن بالإتاوة التي كانت له في أعناقهم، فيأتونه بالسمن والغنم ثمّ إذا تفرق الناس عن عكاظ نزل زهير بالنفقات، أتت زهيراً يوماً عجوز من هوازن بسمن في نحى، واعتذرت له وشكت السنين التي تتابعن على الناس، فذاقه زهير فلم يرض طعمه فدعسها (طعنها) بقوس في يده عطل في صدرها، فاستلقت على

(١) سعيد الأفغاني - أسواق العرب - ص ١٣١.

قفاها، فانكشفت وبيدت عورتها فغضبت من ذلك هوزان واضطغتها عليه مع ما كان في صدرها من الغيظ والحسد، فتذمرت عامر بن صعصعة يومئذٍ وتألَّى خالد بن جعفر (من سراة هوازن) وقال: والله لأجعلنَّ ذراعي في عنقه حتَّى يُقتل أو أقتل، وجعلوه في شأنهم في حروب وأيام حتَّى ظفروا به فقتلوه.

٦ - شريف غير مقنَّع:

كانت الفرسان إذا كانت أيام عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضاً تقنَّعوا كي لا يُعرفوا؛ وكذلك كان حال الشرفاء، فإنَّه لا يوافي عكاظ شريفٌ إلاَّ على وجهه برقع يُرفع مخافة أن يؤسر يوماً فيكبرُ فداؤه، وكان طريف بن تميم العنبري من مشهوري شجعان العرب وفرسانهم لا يتقنَّع كما كانوا يتقنَّعون، فوافي عكاظ يوماً وقد قتل رجلاً من بني شيبان، وتطوَّع رجل منهم للأخذ بثأره من طريف، فقال لقومه: أروني طريفاً، فأروه إياه فجعل كلُّهم مرَّ به تأمله ونظر إليه فأمعن النظر، ففطن طريف فقال: مالك تنظر إليَّ، فقال: أتوسِّمك لأعرفك، فله عليَّ إذا لقيتك يوماً أن أقتلك.

فقال طريف في ذلك:

أو كَلَّما وردت عكاظ قبيلةً
بعثوا إليَّ عريفهم يتوسَّـم
فتوسَّـموني إنَّني أنا ذلكم
شاكي سلاحي في الحوادث معلم
تحتي الأغرُّ وفوق جلدي نثرةٌ^(١)
زغفٌ تردُّ السيف وهو مثلمٌ
فمضى لذلك ما شاء الله ثمَّ ظفر الرجل بطريف في يوم من
أيام العرب فقتله ثأراً لقتيله.

٧- تنافس الشعراء:

كان نابغة بني ذبيان تُضرب له قبة حمراء من آدم بسوق
عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء، فدخل إليه حسان بن ثابت
وعنده الأعشى قد أنشد شعره وحكم له، ثمَّ أنشدته الخنساء
قولها: قذى بالعين أم بالعين عوار... حتى انتهت إلى قولها:

وإنَّ صخرًا لتأتُم الهداة به

كأنه علم في رأسه نار

(١) النثرة: الدرع الواسعة - الزغف: الدرع اللينة أو الرقيقة الحسنة السلاسل.

وإنَّ صخرًا لكافينا وسيدنا

وإنَّ صخرًا إذا نشتو لنحَّار

فقال النابغة: لولا أن أبا بصير (كنية الأعشى) أنشد قبلك
لقلت عنك أشعر الناس. وأنت والله أشعر من كل ذات مثانة.
قالت: والله ومن كل ذي خصيتين.

فقال حسان: أنا والله أشعر منك ومنها. قال: حيث تقول
ماذا؟ قال: حيث أقول:

لنا الجفناتُ الغرُّ يلمعن بالضحي

وأسيافنا يقطرُن من نجدةٍ دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرِّق

فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنا

فقال النابغة: إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك
وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك^(١). وأنت لا تستطيع
أن تقول كقولي:

(١) وفي رواية ثانية: إنك قلت الجفنات ولو قلت الجفان لكان أكثر.
وقلت: يلمعن في الضحي، ولو قلت يبرقن في الدجى لكان أبلغ في
المدح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً. وقلت: يقطن من نجدة =

فإنك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت أن المتأى عنك واسع
خطاطيف حجن في جبال متينة
تشدُّ بها أيدي إليك نوازع

٨- تزويج البنات:

كان الأعمش يوافي سوق عكاظ في كل سنة، وكان المحلق الكلابي مثنائاً مملقاً، فقالت له امرأته: يا أبا كلاب ما يمنعك من التعرُّض لهذا الشاعر؟ فما رأيت أحداً اقتطعه إلى نفسه إلاّ وأكسبه خيراً. قال: ويحك ما عندي إلاّ ناقتي وعليها الحمل. قالت: الله يخلفها عليك، قال: فهل له بد من الشراب والمسوح؟ قالت: إنَّ عندي ذخيرةً لي ولعليّ أن أجمعها.

= دماً، فدللت على قلة عدد القتلى. ولو قلت: يجرين لكان أكثر لانصباب الدم. وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك. فقام حسان منكسراً. وأي من الروايتين كانت فإنَّ حَكَمَ عكاظ خليق بنفوذ البصر وصحة النظر وقوة البديهة، فما عن قليل رضيته العرب يحكم في شعراء عكاظ.

مرَّ الشاعر فتلقَّاه المحلَّق قبل أن يسبق إليه أحد، وابنه يقوده،
فأخذ الخِطام، فقال الأعشى: من هذا الذي غلبنا على خطامنا؟
قال: المحلَّق: شريف كريم. ثم سلَّمه إليه فأناخه فنحر له ناقته،
وكشط له عن سنامها، وكبدها ثم سقاها، وأحاطت بناته به
يغمزونه ويمسحونه، فقال: ما هذه الجواري حولي؟ قال المحلَّق:
بنات أخيك وهنَّ ثمان شريدتهنَّ^(١) قليلة.

ثمَّ خرج الأعشى من عنده ولم يقل فيه شيئاً. فلما وافى
المحلَّق عكاظ، إذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها وإذا
الأعشى يُنشدهم قصيدته التي مطلعها:

أرقت وما هذا السهاد المورِّقُ

وما بي من سقم وما بي تعشُّقُ

ولكن أراني لا أزال بحادثٍ

أغادي بما لم يُمس عندي ويطرق

ومنها:

(١) أي بقيَّة أمواهنَّ.

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها
وبات على النار الندى والمحلق
رضيحي لبان ثدي أم تقاسما
بأسحم داج: عوض لا تتفرق
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه
كما زان متن الهندواني رونق
يداه يدا صدق: فكف مبيدة
وكف إذا ما ضنَّ بالمال تنفق^(١)

ومنها:

(١) اليفاع: الأرض المرتفعة - تشب النار: تضرم - المقرور: من أصابه
البرد - تقاسما: حلفا الأيمان - الأسحم: الأسود - الداجي: المظلم
(يعني بالأسحم الداجي: الليل) عوض: ظرف لاستغراق الزمن
المستقبل - الكف المبيدة: المهلكة التي لا تبقي على مال.

أبا مسمع سار الذي قد فعلتُم فأنجد أقوام به ثم أعرقوا^(١) .. إلخ

فما أتى الأعشى قصيدته إلا والناس ينسلُّون إلى المحلق يهتفون، ثم أتى المحلق الأعشى فسلم عليه فقال الأعشى: مرحباً ببيد قومه. ثم نادى: يا معشر العرب هل منكم مذكاري زوج ابنة إلى الشريف الكريم. فتسابق الأشراف إليه جرياً يخطبون بناته لكان شعر الأعشى. فما قام من مقعده وفيهن مخطوبة إلا وقد زوجها. ولم تُمس واحدةً منهن إلا في عصمة رجل خير من أبيها وأفضل، فما قولك بفطنة امرأة المحلق. وحسن دعاية الأعشى، وهذا النوع من البضاعة التي روجتها عكاظ.

٩ - منحة محررة:

حضر عكاظ من سراة الناس في أحد المواسم عمرو بن الشريد السلمي، وابناه معاوية وصخر أخوا الخنساء الشاعرة. وحضرها معمر بن الحارث جدُّ جميل شاعر الغزل. فلما نظر معمر إلى عمرو صافنه قام حذاءه وأمر ولده أن يخدموه

(١) أنجد: أتى نجداً - أعرق: سار إلى العراق.

ففعّلوا. فلما تقوّضت السوق دعا عمرو بن الشريد ابنه معاوية
وصخراً فقال لهما:

إنّ معمرأ قد طوّقني ما لم يطوّقني أحد من العرب، وقد أحببت
أن أكافيه، فقالا: افعل ما بدا لك. فدعا بكاتب وصحيفة فكتب:
هذا ما منح عمرو بن الشريد السلمي، معمر بن الحارث العذري:
منحه ماله بالوحيدة من أخلاف يثرب، أطلال ذاك ومغانيه
ورسومه وأعراصه ودواويه وزحاليقه وقريلانه وبرادعه وعُجْرُمه
وبشامه وينعه وتاليه وحماطه وشبحه وأراكه وأحزته وحذاريه
وآكامه وبرّقه وعُلجانه، وكلّ ما صاء وصمت فيه، وبكت السماء
عليه وضحكت الأرض عنه فهو لمعمر دون عمرو. وممنوح به من
نيات الصدر، لا يشوبه كدر الامتنان ولا أمارات الامتهان،
مستنزل من هضاب الجندل وجرثومة ود بعيد المحل لا تُخلق الأيام
جدّته ولا يركد لمتنسم بارحه ما دام الزمان، وتوقد الحُرّان وسمر
ابنا سميرو أقام حراء وثبير^(١).

(١) الوحيدة: من أعراض المدينة بينها وبين مكة - الخلف: ما انبت
الصيف من العشب والجمع أخلاف - الطلال جمع طل: وهو
ما شخص من آثار الدار - والمعنى: المنزل الذي غني به أهله
ثمّ ظعنوا - والرسم: ركيّة تدفنها الأرض، وما لا شخص له من =

= الأثار والأعراص جمع عرصة: وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء - الدوية: الأرض غير الموافقة، والدو والدوية والداوية: الفلاة والزحاليف جمع زحلوقة: وهي هنا المكان المنحدر المملس، والقري: مسيل الماء من التلاع، ومدفعة من الربو إلى الروضة، والقرو، حوض طويل ترده الإبل والأرض لا تكاد تقطع، ومسيل المعصرة، وأسفل النخلة ينقر فيتبذ فيه والجمع قُرَيّ - والبراذع جمع برذعة: وهي الأرض لا غليظة صلبة ولا سهلة - واقسورة: نبات سهلي والجمع قسور، وقسور النبات: كثر. والعجرم: جمع عجرمة: وهي شجر - والبشام: شجر عطر الرائحة يسود الشعر ويستاك بقضيبه - والينع: جل الشجر - والحماط: جمع حماطة: شجر شبيه بالتين أحب شجر إلى الحيات أو التين الجبلي أو الأسود الصغير أو الجميز - الشبح: الباب العالي البناء وأشباح المال: ما يعرف من الإبل والغنم وسائر المواشي والأراك: القطعة من الأرض، وشجر من الحمض يستاك به - والأحزة جمع حزيز: وهو الموضع الغليظ المنقاد، كثرت حجارتها وغلظت كأثامها سكاكين، والحذاري جمع حذرية: وهي الأكمة الغليظة، والقطعة الغليظة من الأرض، وحررة لبني سليم وهم قوم عمرو صاحب هذا القول. والبرق جمع برقة: غلظ من الأرض فيه حجارة ورمل وطين مختلطة، وبرق ديار العرب تنيف على مئة ذكر صاحب القاموس كثيراً منها فأرجع إليه، والعلجان: كل شجر ذي شوك، وكل عظيم طويل من الشجر، وما صمت من المال: الذهب والفضة، وما صاء منه: الإبل وما إليها - ورد: الوتد واسم =

وكتب لخمس وثلاثين عاماً خلت من عام الفيل. ثم بعث بالكتاب مع طرف من طرائف اليمن وعدد إلى معمر.

قال الأصمعي: فهي باقية إلى الآن يفيض على ولده دخلها وذلك في أيام الرشيد رحمه الله^(١). وهذا سند تملك محرر صدر من عكاظ ليعرّفنا كم تهز الأريحية من نفوس الكرام.

١٠ - راية غدر:

والذي يثلج الصدر، ويشفي النفس من مآثر عكاظ مشهد نستطيع أن نفيد فيه درساً بليغاً. ومثلاً فعّالاً وأسلوباً ناجحاً في محاربة الخائنين، ووددت - والله - لو أخذنا به في أيامنا العصبية هذه، واحتذينا مثاله، إذن لبقى كلُّ ساعٍ في فساد يذوق الموت ألواناً حتى يلاقي ربّه بالموت المريح.

قال المرزوقي: كانوا إذا غدر الرجل أو جنى جنايةً عظيمة، انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ، فيقوم رجل

= جبل، واسم صنم معروف، والبارح: الريح الحارة في الصيف. وابنا سمير: الليل والنهار تقول: لا أفعله ما سمر السمير وابن سمير وابنا سمير: أي اختلف الليل والنهار.

(١) الأزمنة والأمكنة - ج ٢ - ص ١٦٨ - المرزوقي.

فيخاطب بذلك الغدر فيقول: ألا إنَّ فلان بن فلان غدر.
فاعرفوا وجهه ولا تصاهروه ولا تجالسوه ولا تسمعوا منه.
فإن أعتب وإلاَّ جعل له مثلُ مثاله في رمح فنصب بعكاظ
فلعن ورجم!! وهو قول الشياخ:
ذعرتُ به القطا ونصبتُ عنه

مقام الذئب كالرجل اللعين

وهي خطوة حاسمة موفقة في السياسة السلبية لمحاربة
الردائل، ما أظنَّ أن أحداً اهتدى إليها قبل العرب ولا بعدهم.
ولم يغفل العرب في عكاظ أن يرفعوا مقابل ذلك راية وفاء
لمن أتى مكرمة كلّفته المغارم ثم مضى فيها ولم ينكص، فقد
ذكروا: أنَّ عامر بن جوين رفعت له كندة رايةً غدر في صنيعه
بامرئ القيس ابن حجر في وجهه إلى قيصر، ورفعت له فزاره
راية وفاء في صنيعه بمنظور بن سيّار حيث أقحمته السنة فصار
بماله وإبله وأهله إلى الجبلين فأجار عامر ووفى له. وصار الناس
بين حامد له وذام^(١).

(١) الأزمنة والأمكنة - ج ٢ - ص ١٧٠.

١١ - داعية الإسلام:

وقف رسول الله (ﷺ) بعد مبعثه بثلاث سنين في عكاظ، يدعو الناس إلى الخير والهدى والسعادة، وقد حرص أن يهتدي قومه. فقام في عكاظ يقول: (يا أيها الناس: قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا) ويتبعه رجل له غدیرتان كأن وجهه الذهب، وهو يقول: (يا أيها الناس: إن هذا ابن أخي وهو كذاب فاحذروه) فعرف الناس أن هذا الصادق عن سبيل الله هو عمه أبو لهب بن عبد المطلب، يكذبه كلما قال كلمة الحق.

عاود الدعوة مراراً فلم يُجب ولم ييأس، ورجا أن يجد فيهم الحامي والمجير على الأقل إذا لم يجد المجيب، فكان يقول للحي في موسم عكاظ: (لا أكره منكم أحداً على شيء). وكان الناس يعجبون من أمره وأمر عمه، وهم بين راضٍ وغاضبٍ ومتعجب كان هذا دأبه أبداً يوافي به القبائل سنة بعد سنة، حتى إنَّ منهم من قال له: أيها الرجل، ما آن لك أن تيأس؟ من طول ما يعرض نفسه عليهم.

انتهى رسول الله في تطوافه على القبائل في عكاظ إلى بني محارب ابن حفصة. فوجد فيهم شيخاً ابن عشرين ومئة سنة،

فكلمه ودعاه إلى الإسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه. فقال الشيخ: أيها الرجل قومك أعلم بنبئك، والله لا يؤوب بك رجل إلى أهله إلاّ أب بشر ما يؤوب به أهل الموسم، فأغنّ عنا نفسك. وإنّ أبا لهب لقائم يسمع كلام المحاربي. ثمّ وقف أبو لهب على المحاربي فقال: لو كان أهل الموسم كلّهم مثلك لترك هذا الدين الذي هو عليه، إنّ صابئ كذاب. قال المحاربي: أنت والله أعرف به، هو ابن أخيك ولحمتك.

١٢ - خمر:

بعث رجل من بني جشم امرأته واسمها عبلة بنت عبيد بن خالد بن حنظلة إلى عكاظ بأنحاء^(١) سمن تبيعها له فيها. فباعته السمن وراحلتين وشربت بثمرها الخمر فلما نفذ الثمن رهنت ابن أخيه وهربت فطلّقها فقالت في شربها الخمر:

شربت براحتي محجن
فيا ويلتي محجنٌ قاتلي
وبابن أخيه على لذة
ولم أحتفل عدلة العاذل

(١) التّحي: زق السمن والجمع أنحاء.

وتزوَّجها عبد شمس بن عبد مناف فولدت له أميَّة الأصغر
وعبد أميَّة ونوفلاً وهم العبلات.

١٣ - تصارييف القدر:

وهذا غلام وقع في الأسر وبيع في عكاظ وكان له في ذلك البيع
كلُّ الخير. يقول الطبري: (زارت أم زيد بن حارثة قومها من بني
معن بن طيء وزيد معها فأغارت خيل لبني القين بن جسر في
الجاهلية. فمروا على أبيات بني معن رهط أم زيد فاحتملوا زيدا
وهو يومئذ غلام، فوافوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه
منهم حكيم بن حزام لعتمته خديجة بنت خويلد بأربع مئة درهم
فلما تزوجها رسول الله (ﷺ) وهبته له. فقبضه رسول الله إليه وقد
كان أبوه حارثة بن شراحيل حين فقده قال:

بكيث على يزيد ولم أدر ما فعل

أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل

وحج ناس من كلب فرأوا زيدا فعرفهم وعرفوه. فقال

أبلغوا أهلي هذي الأبيات:

ألكني^(١) إلى قومي وإن كنت نائياً
بأني قطين البيت عند المشاعر
فكفوا من الوجد الذي قد شجاكم
ولا تُعملوا في الأرض نص الأباغر
فإني بحمد الله في خير أسرة
كرام معد كابرأ بعد كابر

فانطلق الكليون فأعلموا أباه، فقال: ابني ورب الكعبة،
ووصفوا له موضعه وعند من هو، فخرج حارثة وكعب ابنا
شراحيل بفدائه وقدا مكة فسألا عن النبي (ﷺ) فقيل هو في
المسجد، فدخلا عليه فقالا: يا بن عبد الله يا بن عبد المطلب
يا بن هاشم يا بن سيد قومه! أنتم أهل حرم الله وجيرانه وعند
بيته تفكؤن العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ابنا عندك،
فأمنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه، فإنا سنرفع لك في الفداء.

قال: من هو؟ قالوا: زيد بن حارثة. فقال رسول الله (ﷺ):
فهلا غير ذلك؟ قالوا: وما هو؟ قال: ادعوه فأخبره فإن

(١) ألكني إلى فلان برسالة: كن رسولي إليه، الألوكة: الرسالة.

اختاركم فهو لكما بغير فداء، وإن اختارني فو الله ما أنا بالذي
أختار على من اختارني أحداً، فقالا قد زدتنا على
النصف وأحسنت، فاختار زيد محمداً. فقال رسول الله (ﷺ):
اشهدوا أن زيدا ابني أرثه ويرثني. فلما رأى ذلك أبوه وعمه
طابت أنفسهما وانصرفا^(١).

١٤ - فتنة جمال:

زعموا أن جارية بن سليط كان أحسن الناس وجهاً وأمدهم
جسماً وأنه أتى عكاظ فأبصرته امرأة من خثعم فأعجبها،
وتلطفت له حتى وقع عليها. فلما فرغ قالت: إنك قد أتيتني
على طهر، وإني لعلِّي سأعلق لك ولداً، فموعدك فصال ولدي
إن حملت لك.

ثم وافى عكاظ لرأس ثلاثة أحوال. وأقبلت المرأة مع أمها
وخالتها يلتمسنه بعكاظ حتى رآته المرأة فعرفته وقالت لأمها:
هذا جارية. فقالت أمها: بمثل جارية فلتزن الزانية، سراً
أو علانية.

(١) المنتخب من ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين - الطبري -
ص ٣ - ٥.

ووجد الرجل أنّ المرأة قد ولدت غلاماً وفطمته ثمّ
دفعن إليه الغلام فسّمّاه عوفاً فشرف وساد قومه وهو
عوفُ الأصمّ^(١).

١٥ - ما رأيت شيخاً أكذب:

مرّ المستوغر بن ربيعة، شاعر معمر، بعكاظ يوماً وعلى ظهره ابن
ابنه شيخاً هرمًا، فأعيا من حملة فوضعه بالأرض وقال: عنيّني صغيراً
وكبيراً. فسمعه رجل فسأه ذلك فالتفت إليه ناصحاً: يا عبد الله
أتقول هذا لأبيك؟ أحسن إليه فطالما أحسن إليك. قال: أو تدري من
هو؟ قال: نعم، هو أبوك أو جدُّك. قال: هو والله ابن ابني. قال
الرجل: ما رأيت شيخاً أكذب، لو كنت المستوغر بن ربيعة ما زدت.
قال: فأنا المستوغر بن ربيعة^(٢).

(١) أمثال الضبي - ص ١٨.

(٢) عمّر طويلاً جداً وأدرك صدر الإسلام ولقد بالغوا في عمره حتى
بلغوا به ٣٢٠ سنة ورووا قوله:

مئة أتت من بعدها مئتان لي

وازدادت في عدد الشهور سنينا

مصادر الدراسة

- ١- السيوطي - المزهري في علوم اللغة - المكتبة الوقفية للكتب المصورة.
- ٢- د. فليب حتي - تاريخ العرب.
- ٣- ياقوت الحموي - معجم البلدان - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٩٩٠.
- ٤- الأصفهاني - الأغاني - بيروت - دار صعب ١٩٨٧.
- ٥- بلوغ الأدب.
- ٦- ابن سعد - طبقات - (ابن سعد - الطبقات الكبرى - المكتبة الشاملة).
- ٧- ابن منظور - لسان العرب - دار صادر - لبنان.
- ٨- الميداني - مجمع الأمثال - دار المعرفة - بيروت.
- ٩- محمد أحمد جاد المولى - أيام العرب في الجاهلية - دار إحياء التراث - لبنان ١٩٤٢.
- ١٠- سعيد الأفغاني - أسواق العرب - دار الفكر ١٩٧٤.
- ١١- المرزوقي - الأزمنة والأمكنة - المكتبة الوقفية ١٩٨٧.

الشعر في بلاط الغساسنة والمناذرة

في أواخر القرن الثالث للميلاد هاجر الغساسنة من اليمن بعد انفجار سدّ مأرب واستوطنوا أرض حوران والبلقاء. وقد ذكر أبو الفداء لأسرة غسان المالكة واحداً وعشرين عاهلاً وأشار إلى بلوغ دولة غسان مجدها وأوجها خلال القرن السادس للميلاد وهو عصر ازدهار دولة اللخمين قرينتها ومنافستها في الحيرة.

ويكاد يقتصر تاريخ العرب في هذا القرن على مآتي الحارث الثاني بن جبلة ملك غسان (٥٢٩ - ٥٦٩)م والمنذر الثالث ابن ماء السماء ملك الحيرة المتوفى (٥٥٤)م.

وفي أوائل القرن الثالث الميلادي بدت طلائع من قبائل تنوخ اليمنية اتخذت لها مساكن في المنطقة الخصبة الواقعة إلى

الغرب من الفرات وانتشرت لأول عهدها في الخيام، فإذا المخيم يصبح قاعدة راهنة تعرف «بالحيرة» من السريانية (حرتا) أي المخيم على بعد ثلاثة أميال من الكوفة، ثم أصبحت الحيرة عاصمة بلاد العرب الفارسية، وكان سكان الحيرة الأصيلون نصارى من الكنيسة السريانية الشرقية. أمّا ملوك لخم الذين أتصلت بنا أسماؤهم فيزيدون على العشرين.

وكان من ملوكهم النعمان الأول الملقب «بالأعور» (٤٠٠ - ٤١٨ م) وقد ذكرته أشعار العرب وأخبارهم بكثير من المديح. وقيل إنّه بنى قصر الخورنق (لفظة فارسية معناها: حصن منيع) بظاهر الحيرة. ويعدُّ الخورنق من معجزات الفن وبدائعه.

وقد نسب مؤرخوا الإسلام بناءه إلى مهندس رومي اسمه «سنّار» كُتِبَ له أن يموت ميتةً شنعاء مألوفة في شتى الأساطير التي تجعل وليّ الأمر يقتل الصانع، ويُنسب قصر «السدير» إلى النعمان أيضاً.

ولقد ازدهرت الحيرة في أيام المنذر الأول (١٤٨ - ١٦٢ م) وجلس على عرشها المنذر الثالث عام (٥٠٥ - ٥٥٤ م)

المعروف بابن ماء السماء وخلفه ابنه عمرو بن هند (٥٥٤ -
٥٦٩م) الذي جعل الحيرة موئلا الأدباء والشعراء، حيث أمَّ
مجلسه أعظم الشعراء المعاصرين مثل طرفة بن العبد، والحارث
بن حلزة، وعمرو بن كلثوم، وهم من أصحاب المعلقات.

نسج عمرو على منوال سواه من ملوك لخم وجفنه الذين
أدركوا أن الشعراء من معاصريهم هم زعماء الرأي العام بين
العرب، يديرون دفة الدعاية كيف شاؤوا.

فلم يأل جهداً في إكرامهم وغمرهم بفضله، إلا أن عمرو بن
هند مات مقتولاً، والسبب في قتله فيما يروى - هو أن ابن كلثوم
أحد أمراء الشعر الذين أموا بلاطه غضب يوم دخلت أمه ليلي ابنة
المهلهل فلحقها من المهانة ما لم تطقه نفسه فوثب إلى سيفٍ معلّق
بالرواق، وضرب به رأس الملك وقال معلّته المشهورة:

ألا هبّي بصحنك فأصبحينا

ولا تبقي خموراً الأندرينا

أبا هندٍ فلا تعجل علينا

وأنظرنا نخبرك اليقيننا

بأننا نورد الرايات بيضاً
ونصدرهنَّ حمراً قد رويننا
ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأيّ مشيئة عمرو بن هند
تطيع بنا الوشاة وتزدريننا
تهدّدنا وتوعّدنا رويداً
متى كنّا لأمك مقتويننا

وكان الأخطل شاعر الأمويين متحدراً من قبيلة تغلب التي
ينتمي إليها عمرو بن كلثوم، ففاخر بعمّيه قائلاً:

أبني كليب إنّ عمّي اللذا
قتلا الملوك وفكّكا الأغلالاً^(١)

ولا ريب أنّ الغساسنة وهم جيران البيزنطيين كانوا: أرقى
ثقافة من مناظريهم اللخميّين المقيمين على تخوم فارس، وقد

(١) ديوان الأخطل - ص ٤٤.

وفد بعض شعراء الجاهلية إلى أمراء غسان، فأحسن هؤلاء وفادتهم، وبالغوا في إكرامهم، منهم لبيد أحدث أصحاب المعلقات سناً، ولقد قاتل إلى جانب غسان في يوم حليلة.

والنابغة الذبياني شاعر البلاط عند المناذرة، وممن لحق بالغساسنة شاعر يثرب حسان بن ثابت الذي أعلن أنه كان يمت إليهم بنسب. وقد أشاد في شعره بما كانوا عليه من البذخ والرخاء. والنابغة هو زياد بن معاوية بن سعد بن ذبيان سمّي بذلك لأنه قال الشعر ونبغ فيه بعد أن تقدّمت به السن. وهو شاعر ذبيان، وليس فارسها وسفير قبيلته إلى بلاطي الغساسنة والمناذرة أثناء حروبها مع عبس، ومع القبائل الأخرى، أو مع الغساسنة.

حتى قيل إنَّ النابغة شاعر بلاط، وهو أوّل من اتخذ من الشعر وسيلةً للتكسّب، فلم يمدح إلاّ طمعاً بعطايا النعمان بن المنذر. وكان مديحه أيضاً للغساسنة طمعاً بهباتهم المقرونة بشفاعته لسبايا قبيلته وأسراها، وفي الأسرى إحدى بناته^(١).

والمشهور في التاريخ أنّ النعمان «أبو قابوس» غضب على النابغة إثر قصّة مشهورة تقول: إنّ النعمان طلب منه وصف

(١) الأصفهاني - الأغاني - ج ١١.

المتجرّدة زوجته بعدما دخلت على الملك والشاعر معه.
فوصفها وصفاً فاحشاً في قصيدته المشهورة ومطلعها:

أمن آل مية رائحٌ أو مغندي

وقال في وصف قوام المتجرّدة:

مخطوطة المتنين^(١) غير مفاضية^(٢)

رياً^(٣) الروادف بضّة^(٤) المتجرّد^(٥)

ويصف شعرها فيشبهه بالكرم المائل على الدعام:

وبفاحم^(٦) رَجَلٍ^(٧) أثيث^(٨) نبتُهُ

كالكرم مال على الدعام المُسند

(١) مخطوطة المتنين: ملساؤهما.

(٢) مفاضية: ممتلئة شحماً ولحماً.

(٣) رِيّاً عبله ممتلئة.

(٤) البضّة: الرخصة.

(٥) المتجرّد: الجلد.

(٦) الفاحم: الأسود.

(٧) رَجَلٍ: المرسل.

(٨) أثيث: كثير.

هذه القصيدة تكشف تفاصيل المتجرّدة، وتضاريس
جسدها بصورة جعلت المنخل اليشكري الشاعر يهمس
للنعمان بأنّ هذا الوصف لا يكون إلاّ من مجرّب، وكان النعمان
رجلاً قصيراً دميماً أبرص، فأوغر المنخل صدره على النابغة
حتى أضمر قتله.

وكان عصام صاحب الملك يسمع، فوشى بالملك وبالمنخل
للنابغة، فهرب النابغة إلى الشام خائفاً من تلك الوشاية، وأثناء
وجوده في الشام قام المنخل اليشكري ووضع شعراً يهجو به
النعمان، ونسبه للنابغة فزاد الطين بلةً، فظلل الملك يتحين آية فرصة
للبطش بالنابغة. لكن كما يقول المثل: (من حفر حفرةً لأخيه وقع
فيها) وهكذا كان مصير المنخل اليشكري والمتجرّدة.

فما هي إلاّ أيام حتى اكتشف الملك مكيدة قصره، وعرف أنّ
المتجرّدة على علاقة شريرة بالمنخل، وقد أنجبت منه ولدين
نسبتهما إلى النعمان، وحينها أمر الملك بقتل الشاعر والمتجرّدة.
كما أمر بإحراق الجثّة، وبأن يُذرى رمادها في الرياح،
وأصدر قراراً بأن يلقى مثل جزائه كلُّ من يذكر اسمه ولو

بالمصادفة، أو ينشر قصائده. والمحزن أننا لا نجد شيئاً في التاريخ عن هذا الشاعر إلا هذه القصيدة التي حفظها الرواة عن ظهر قلب لجهاها وعفويتها وصدقها:

إن كنت عاذلتني فسيري
نحو العراق ولا تحوري
لا تسألني عن جُلِّ مالي
وانظري كرمي وخيري
ولقد شربت من المدامة
بالقليل وبالكثير
فإذا انتشيت فإني
ربُّ الخورنق والسدير
وإذا صحوْتُ فإني
ربُّ الشُّوية والبعير
ولقد دخلت على الفتاة
الخدري في اليوم المطير

الكاعب الحسنا ترفلُ
في الـدمقس وفي الحريـر
فـدفعنها فتـدافعت
مـشي القطاة إلى الغدير
ولـثمتها فـتنتـست
كـتـنفس الطبي الغريـر
فـدنت وقالت يا منـخل
ما بجـسمك من حرور
ما شف جسمي غير حبك
فاهدأي عني وسيري
وأحبها وتـحبني
ويحبُّ ناقتهـا بعيري
يا هند من لـتيم
يا هند للعاني الأسير

لقد كان المنخل من أجمل فتیان العرب وأرقهم شعراً، وقد
وفد على النعمان وأصبح أحد ندمائه وشاهد المتجرّدة فوق في
هواها، وأصبح لا يغادر الخورنق إلا من أجل أن يعود إليه.

وقيل إنَّ المنخل كان يحسد النابغة الذبياني الذي لقيه في بلاط النعمان وكان يقربه إليه ويغدق عليه الهدايا، ولذا أوقع بينهما المنخل، ووشى بالنابغة لدى النعمان متَّهماً إياه بعلاقة حبٍّ مع المتجرِّدة.

كما قيل إنَّه كان يحب هند بنت المنذر أخت عمرو بن هند، فأصبح مضرب المثل في عدم العودة بعد إقدام النعمان على قتله، فيقال: «حتى يعود المنخل» وهناك عدَّة أسباب اجتمعت فدفعت النابغة إلى الهرب من بلاط النعمان ومن أهمها أن بعض الشعراء وبينهم المنخل الإشكري ومرَّه بن سعد بن قريع قد دسُّوا على النابغة لدى النعمان، فذكروا أبياتاً في هجائه نسبوها للنابغة. كما زادوا على قصيدته في المتجرِّدة أبياتاً فاحشة أثارت غضب الملك وكان قد طلب إلى النابغة وصفها ففعل.

ومن جملة هذه الأبيات الزائدة قولهم:

فإذا لمست لمست أجثمَ جاثماً

متحيِّزاً بمكانه ملء اليد^(١)

(١) ديوان النابغة - ص ٢٩.

وإذا طعنت طعنت في مستهدفٍ

رأى المجسَّة بالعير مقرقد

وبعدها هرب النابغة خوفاً من النعمان إلى بلاط الغساسنة،

وانقطع إلى عمرو بن الحارث الغساني وأخيه النعمان يمدحهما.

ومن قصائده الجميلة في مدحهم.

كليني لهم يا أميمة ناصبٍ

وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقضٍ

وليس الذي يرعى النجوم بأيب

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم

عصائبٌ طير تهدي بعصائب

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

بهنّ فلول من قراع الكتائب

رقاقُ النعال طيبٌ حجزاتهم

يحَيِّون بالريحان يوم السباب

ولا يحسبون الخير لا شرَّ بعده
ولا يحسبون الشرَّ ضربة لازبٍ
إنَّ الغساسنة أشدَّاء شجعان تعودوا النصر:
وثقت له بالنصر إذ قيل غزت
كتائب من غسان غير شائبٍ

وقد لجأ إلى الغساسنة لإنقاذ أسرى قبيلته من سجن الحارث
الغساني. وكان بين الأسرى إحدى بنات الشاعر. ولعلها
المذكورة في مطلع قصيدته البائية السالفة الذكر.

قال عنه ابن رشيق القيرواني في كتابه «العمدة» كان
أحسن الشعراء ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأذهبهم
في فنون الشعر وله قصائد طوال جياذ، وثناؤه قليل، ونبغ
في اعتذارياته الرقيقة.

ولم يكن النابغة صوت القبيلة مثل عمرو بن كلثوم أو مثل
عنتر بن شداد ولا هو طالب مجد مثل امرئ القيس، ولا شاعر
لهو ولذَّة مثل طرفة بن العبد والمنخَّل اليشكري وعبيد بن
الأبرص وغيرهم من شعراء بلاط النعمان.

وإنما كان شاعر بلاط يجيد منادمة الملوك، ويأكل معهم في
أواني الذهب والفضة؛ ولكنّه مع كلّ ذلك كان رسول بني
ذبيان إلى قصور الغساسنة والمناذرة إذا ما وقعت قبيلته في أسر
أعدائها، فيشفع لها، وينقذها من الدّل والهوان.

النابعة إنسان مجرّب واعٍ يعرف كيف يخاطب الملوك،
وكيف يجردّهم من منطقتهم، وحججهم ضده وبالتالي
كيف يسترّضهم.

وهو يبدأ عادة الاعتذار بعد مقدمات الوقوف على
الأطلال، ووصف الناقة بمديح النعمان، وذكر فضله وخلقه
وسطوته ثم يخلص إلى التهمة التي أغضبت ممدوحه:

أتاني أبيت اللعن أنّك لمتني

وتلك التي أهتمُّ منها وأنصب

فإذا هو شديد القلق والأسى، يفكّر ليله ونهاره بما نسب
إليه زوراً وبهتاناً فهو ساهرٌ أبداً يراعى النجوم أو متقلّب على
فراشٍ من شوك:

فبتُّ كأنَّ العائداتِ فرشَنَ لي
هراساً به يُعلى فراشي ويقشِبُ^(١)
حلفت فلم أترك لنفسك ريبَةً
وليس وراء الله للمرء مطلب
لئن كنت قد بُلِّغت عني خيانةً
لمبلغك الواشي أغشَّ وأكذب
فإنَّ أكَ مظلوماً فعبُدْ ظلمته
وإنَّ تك ذا عتبي فمثلك يعتبُ
إنَّ فضل ممدوحه عام يستوي فيه القاصي والداني، لأنَّه
مفطور على العطاء ومنفعة الآخرين:
فتلك تبلِّغني النعمان إنَّ له
فضلاً على الناس في الأدنى وفي البُعدِ^(٢)

(١) ديوان النابغة - ص ٢٧.

(٢) أنعم الجندي - دراسات في الأدب العربي ص ١٦.

أعطى لفارهة^(١) حُلُوٍ توابعها
من المواهب لا تُعطى على نكد
الواهبُ المائة المعكاء زَيْنها
سُعدان توضحَ في أوبارها اللبدِ
إلى أن يقول له^(٢):

فمن أطاعك فأنفعه بطاعته
كما أطاعك وأدله على الرشدِ
ومن عصاك فعاقبه معاقبة
تُنهي الظلوم ولا تقعد على ضمدِ

لقد عاد النابغة إلى بلاط النعمان مجللاً بالنصر بعد أن عفا
عنه النعمان.

(١) الفارهة: الناقة الكريمة وكل مطية جيّدة - المعكاء: الشديدة -
السعدان: نبات تسمن به الإبل توضح: اسم مكان، والمعنى: يهب
مائة ناقة شديدة سمينة فتية لم تُركب فظلّ وبرها ملبداً على جلدها.
(٢) ديوان النابغة - ص ١٣.

أما سبب اعتذارياته وإصراره على العودة فقد قيل بسبب
عطايا النعمان التي كانت فيما زعم البعض، أكثر من عطايا
عمرو بن الحارث ملك الغساسنة.

والنابغة يكذب هذا الزعم بشعر ورد في اعتذارياته يمدح
به الغساسنة ويذكر فيض كرمهم، وحبهم عليه.

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم
أحككم في أموالهم وأقرب

وهو في اعتذارياته يصور نفسه خائفاً من النعمان ليستدرّ عطفه:
أنبئت أن أبا قابوس أوعديني

ولا قرار على زارٍ من الأسد

وما يكاد يشعر أنه لمس شغاف قلب الملك حتى ينقلب إلى
القسم ليؤكّد براءته، وينتقل إلى إثارتة غرور النعمان، وتعظيم
سطوته حتى هو كالليل يدرك الشاهر مهما ظنَّ أن المتأى واسع.

فإنك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت أن المتأى عنك واسع

ومهما يكن فالنابغة في اعتذارياته مدرك نفسية الملك،
يخاطبها باللغة التي تحب، فيدغدغها ويقودها على هواه حتى
تصفح وتعفو.

تلك هي الاعتذاريات قلق ورهبة، ردّ تهمة وطعن خصم،
استعطاف وتذلل، إثارة غرور، وطلب صفح في دراية وإدراك،
وصدق في المطلب والتعبير^(١).

ظلّ النابغة شاعراً يسبح في التاريخ، يضعه ابن سلام
الجمحي في كتابه «طبقات فحول الشعراء» في صدارة الفحول
الأربعة امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى.

أمّا الشاعر حسن بن ثابت فقد قال الشعر صغيراً ونبغ فيه
حتى صار من طليعة شعراء الخزرج.

اتصل بأمرء الغساسنة في الشام. وهم من أقربائه في
النسب، وزارهم مادحاً وواصفاً بطولاتهم ووقائعهم مشاركاً
لهم في لهوهم وسرورهم متنعماً بإكرامهم له، والتقى في
مجالسهم بشعراء كبار مثل النابغة الذبياني وعلقمة الفحل

(١) إنعام الجندي - دراسات في الأدب العربي - ص ٣٢.

وتبارى معهم في مدح الغساسنة، وقيل إنَّه اتصل بملوك الحيرة ومدحهم، وكانت له مجالس هو وشراب مع الأعشى.

ونجد لحسان بن ثابت شعراً في الغساسنة هو أضعاف ما قاله في المناذرة وقد يعود ذلك لقرب الغساسنة من يثرب وللمصالح الاقتصادية وللهبات والعطايا التي كان يأخذها حسان وأمثاله.

وقد نُقِلت كلمة «غَسَّان» في زعم الإخباريين من اسم ماء يقال له «غَسَّان» ببلاد «عك» بزييد وربيعة. نزل عليه آل غسان وأصلهم من الأزدي بعد خروجهم من اليمن قبيل حادث سيل العرم أو بعده. فلما أقاموا عليه وشرّبوا منه أخذوا اسمهم منه وعرف نسلهم بالغساسنة.

وقد ورد في الأخبار انتساب أهل يثرب إلى «عمرو بن عامر» واتصال نسبهم بنسب غَسَّان. من ذلك شعر الشاعر الأنصاري المعروف حَسَّان بن ثابت يقول فيه:

ألم ترنا أولاد عمرو بن عامرٍ
لنا شرفٌ يعلو على كلِّ مرتقى

ونجد في شعر حسان إشارة إلى يوم حليلة كما نجد في
الأمثال «ما يوم حليلة بسر» دلالة على شهرة ذلك اليوم.

ولحسان بن ثابت شعر في مدح جبلة بن الأيهم وفي ذكر
ملكه، وملك «آل جفنه» يظهر منه شدة تعلقه بهم، وقد أورد
المسعودي بعض هذه الأشعار.

وقد ورد في رواية أن حسان بن ثابت زار جبلة بن الأيهم
وعنده النابغة وعلقمة بن عبدة فأنشده شعراً فأعطاه ثلاثمائة
دينار، وعشرة أقمصة لها جيب واحد. وذكر أن جبلة لما سمع
وهو ببلاد الروم أن حساناً قد صار مضرور البصر كبير السن
أرسل إليه خمسمائة دينار، وخمسة أثواب ديباج فلما سلمها
الرسول الذي حمل الهوية إليه نظم شعراً في مدحه أولاً^(١):

إنَّ ابنَ جفنةَ من بقيَّةِ معشرٍ
لم يَغْزُهُمُ أبَاؤُهُمُ بِاللُّومِ
لم ينسني بالشام إذ هو ربُّها
كلَّ ولا متنصراً بالروم

(١) ديوان حسان بن ثابت - ص ٢١٩.

يُعطي الجزيلَ ولا يراهُ عنده
إلاَّ كـبعض عطيَّة المذموم
وأتيته يوماً فقربَّ مجلبي
وسقى فرواني من الخرطوم^(١)

قال حسان بن ثابت^(٢): قدمت على عمرو بن الحارث الغساني، فاعتاص الوصول إليه فقلت للحاجب بعد مدة: إن أذنت لي عليه وإلاَّ هجوت اليمن كلها. ثم انقلبت عنكم!! فأذن لي، فدخلت عليه، فوجدت عنده النابغة وهو جالس عن يمينه وعلقمة بن عبدة وهو جالس عن يساره، فقال لي: يا بن الفريرة! قد عرفت عيصك ونسبك في غسان، فارجع فإني باعثُ إليك بصله سنينه ولا أحتاج إلى الشعر؛ فإني أخاف عليك هذين السبعين: النابغة وعلقمة، أن يفضحاك، وفضيحتك فضيحتي وأنت والله لا تحسن أن تقول:

رقاق النعال طيب حجزاتهم
يحيون بالريحان يوم السباب

(١) الخرطوم: الخمر، وخراطيم القوم: ساداتهم - والخرطوم: أنف الفيل.

(٢) ديوان حسان بن ثابت - ص ١٦٤.

فأبيت وقلت لا بدّ منه! فقال: ذاك إلى عمّيك: فقلت لهما:
بحقّ الملك إلاّ قدمتماني عليكما! فقالا: قد فعلنا. فقال: عمرو
بن الحارث هات يا بن الفريعة فأنشأ يقول:

أسألت رسم الدار أم لم تسأل

بين الجوابي فالْبُضِيعِ فحومل^(١)

لله درُّ عَصَابَةٍ نَـادِمَتَهُمْ

يَوْمًا بَجَلَّتْ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

أولاد جفنة حول قبر أبيهم

قبر ابن مارية الكريم المُضِلِّ

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كَلَابَهُمْ

لا يسألون عن السواد المقبل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم

شُمُّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

(١) الرسم: ما بقي من آثار الديار - الجوابي والبضيع وحومل: أسماء
أمكنة في الشام.

يسقون من ورد البريص^(١) عليهم

بردى يصفق بالرحيق السلسل

وقد افتخر حسان بن ثابت بنسبه الذي يعلو على كل صاعد^(٢)

ألم ترنا أولاد عمرو بن عامرٍ

لنا شرف يعلو على كل مُرتقي

ملوك وأبناء الملوك كأننا

سوارى نجوم طالعاتٍ بمشرق

إذا غاب منا كوكب لاح بعده

شهابٌ متى ما يبدُ للأرض تُشرق

فنحن ولاة الناس في كل موطنٍ

متى ما نقل في الناس قولاً نُصدّق

(١) البريص: نهر يتشعب من بردى في دمشق - وابن مارية هو الحارث الأعرج بن أبي شمر الغساني.

(٢) ديوان حسان بن ثابت - ص ١٥٥.

أمّا طرفة بن العبد فاسمه عمرو وكنيته أبو اسحاق، وطرفة لقبه والطرفة: الواحدة طرفاء: وهو شجر الأثل. اتصل بالملك عمرو بن هند فجعله من ندمائه.

وقد كان طرفة شاعراً جريئاً على الشعر، فهجا عمرو بن هند وقابوس أخاه بقصيدته التي منها:

فليت لنا مكان الملك عمرو

رغوثةاً^(١) حول قبتنا تخورُ

لعمرك إنَّ قابوس بن هند

ليخلط ملكه حمقٌ كثير

فوصل خبر هذه القصيدة إلى عمرو بن هند فغضب غضباً شديداً؛ لكنّه أخفى ذلك، وأظهر حسن نيّة بطرفة، ولم يكن طرفة يعلم بخبر وصول القصيدة إليه، فأرسل عمرو بن هند طرفة، وخاله المتلمّس الذي كان قد هجاه منذ زمن، ونسي ذلك إلى عامله في البحرين، ومع كلّ واحدٍ منهما صحيفة مكتوب فيها «اقطع يدي ورجلي حاملها، وادفنه حيّاً».

(١) الرغوثة: الشاة أو البهيمة لا تكاد ترفع رأسها من المغلف.

وبعد أن أعطاهما هدية من عنده أقبلا حتى نزلا الحيرة، فقال
المتلمس لطفرة: «تعلمنَّ - والله - إنَّ ارتياح عمرو لي ولك
لأمر مريب، وإنَّ انطلاقي بصحيفة لا أدري ما فيها...» فقال
طفرة: «إنَّك لتسيءُ الظنَّ».

ففكَّ المتلمس فتح الصحيفة ثمَّ جاء على غلام من أهل
الحي. فقال له: أتقرأ يا غلام؟ فقال: نعم. فأعطاه الصحيفة
فقرأها فقال: أنت المتلمس؟ فقال: نعم. قال: النَّجاء فقد أمر
بقتلك، فأخذ الصحيفة فقذفها في البحيرة، فقال له طفرة: لئن
كان قد اجترأ عليك ما كان بالذي يجترئ عليَّ، وأبى أن يعطيه،
فسار المتلمس حتى أتى الشام فقال في ذلك:

من مبلغ الشعراء عن أخويهم
نبأ فتصدقهم بذاك الأنفسُ
أودى الذي علق الصحيفة منها
ونجا حذار حياته المتلمس

ولما وصلت الصحيفة إلى عامل البحرين عمل بموجبها.
وقتل طفرة بن العبد وكان نهاية هذا الشاعر العملاق الذي

أصبح شخصيةً أسطورية في قافلة الشعراء الملحميين الكبار.
ولد والشعر منهمر في دمه من أصلاب أبيه وأمه.

واستطاع أن يقيم مذهباً وجودياً من خلال تعبيره عن
حياته ومن معايشة نزواته وأفكاره بصورة صافية متأججة
بالنزعة إلى الحرّية وتحقيق الشخصية الذاتية بكلّ انفعالاتها
الأصلية وتحديّها لحتميات العالم الخارجي.

كان شاعراً من الطبقة الأولى حتى إنّ بعضهم يجعل معلّته
بعد معلّقة امرئ القيس، وبعضهم ألف فيها مصنّفات بديعة
وينقل الدكتور محمد علي الهاشمي من الجاحظ في البيان
والتبيين ج ٢ - ص ٢٩٠ قوله: «وليس في الأرض أعجب من
طرفه بن العبد وعبد يغوث وذلك إذا قسنا جودة أشعارهما
وقت إحاطة الموت بهما».

أمّا علقمة الفحل فقد كان له أخ يقال له شأس بن عبده
أسره الحارث بن أبي شمر الغساني مع سبعين رجلاً من بني تميم
فأتاه علقمة ومدحه بقصيدة أولها:

طحاً^(١) بك قلب في الحسان طروبُ
بُعِيدُ الشَّبَابِ عَصْرُ حَانَ مَشِيْبُ
إِلَى الْحَارِثِ الْوَهَّابِ أَعْمَلْتُ نَاقَتِي
لِكُلِّكُلِّهَا وَالْقُضْرَيْنِ وَجِيْبِ
فَلَمَّا بَلَغَ هَذَا الْبَيْتِ:

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتُ بِنِعْمَةٍ
فَحُقِّ لَشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنْوِبِ

فقال الحارث: «نعم وأذنبه»، وإنما أراد علقمة بقول: «وفي
كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتُ بِنِعْمَةٍ».

أَنَّ النَّابِغَةَ كَانَ شَفَعَ فِي أَسَارِي بَنِي أَسَدٍ فَأَطْلَقَهُمْ، وَكَانُوا
نَيْفًا وَثَمَانِينَ، ثُمَّ سَأَلَهُ عَلْقَمَةَ أَنْ يَطْلُقَ أَسَارِي بَنِي تَمِيمٍ فَفَعَلَ
وَلَعَلْقَمَةَ شَعْرٌ جَمِيلٌ يَسْتَجَادُ مِنْهُ قَوْلُهُ^(٢):

(١) طحا طحواً: بعد هلك - الكلكل: الصدر - القُصْرِيَانِ: ضلعان
يليان الترقوتين - الوجيب الحفقان - ذنوب: لحم الألية - وأذنبه
الحيل: الوافر الذنب.

(٢) ابن قتيبة الدينوري - طبقات الشعراء - ص ٩٤.

فإن تسألوني بالنساء فإنني
بصيرٌ بأدواء النساء طيب
إذا شاب رأس المرء أو قلَّ ماله
فليس له في ودّهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه
وشرح الشباب عندهنَّ عجيب

مصادر الدراسة

- ١ - الأصفهاني - الأغاني - بيروت - دار صعب.
- ٢ - ابن قتيبة الدينوري - طبقات الشعراء - دار الكتب العلمية - لبنان ١٩٨١.
- ٣ - إنعام الجندي - دراسات في الأدب العربي - دار الطليعة - بيروت.
- ٤ - ابن رشيق القيرواني - العمدة - دار الجيل - لبنان ١٩٧٢.
- ٥ - ديوان الأخطل - دار الجيل - لبنان ١٩٧٢.
- ٦ - ديوان حبيب بن ثابت - دار صادر - بيروت.
- ٧ - ديوان النابغة الذبياني - تحقيق: عباس عبد الساتر - دار الكتب العلمية ١٩٩٦ - بيروت.
- ٨ - المسعودي - مروج الذهب - مؤسسة الأعلمي - لبنان ١٩٩١.

سوق المرید فی البصرة

ورث عكاظ وقضى على ما كانت تتمتع به من مميزات.
فمنذ عصر الراشدين نزلت العرب البصرة سنة أربع عشرة
ومصرتها سنة سبع عشرة على تخطيط وضعه عمر، وأرسل من
يقف على تنفيذه، وكان المرید على الجهة الغربية من البصرة إلى
البادية. ومعنى المرید: محبس الإبل وربطها. والمرید أيضاً بيدر
التمر لأنه يرید فيه فيشمس. والریدة لون إلى الغبرة. ومرید
البصرة كان في الأصل سوقاً للإبل حتى إذا كان عهد الأمويين
صار سوقاً عامة تتخذ فيه المجالس، ويخرج إليها الناس كل
يوم. كل إلى فريقه، وحلقته وشاعره. وتتعدد فيه الحلقات
يتوسطها الشعراء والرجاز ويؤمها الأشراف وسائر الناس
يتناشدون ويتفاخرون ويتهاجون ويتشاورون وقد جدوا فيها
مستجماً لأبدانهم وأرواحهم.

فالمربد معرض لكل قبيلة تعرض فيه شعرها ومفاخرها كما تعرض عروضها وقد بُنيت فيه الدور الكبيرة الجميلة حتى قال سليمان بن جعفر الهاشمي جملة المشهورة: «العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمرَبْد عين البصرة، وداري عين المرَبْد».

قال ياقوت الحموي: مرَبْد البصرة من أشهر محالها. وبه كانت مفاخرات الشعراء والخطباء وهو الآن بائن عن البصرة نحو ثلاثة أميال وكان ما بين ذلك كله عامراً وهو الآن خراب. فصار «المرَبْد كالبلدة المنفردة في وسط البرية».

ولئن كان لعكاظ ذلك الأثر في اللغة العربية: ألقاها وأساليبها. فإنَّ المرَبْد كان له أيضاً في اللغة أثر بعيد يختلف بعض الاختلاف عن أثر عكاظ لما بين الزمانين والمكانين من التباين. فعكاظ في قلب الجزيرة العربية يحجُّ إليها أشرف العرب وفصحاؤها لا عجمة فيها. والأمر في المرَبْد على العكس هو في طرف الجزيرة على الخليج العربي وبينه وبين الفرس قرب قريب. وزاد الإسلام والفتوح اختلاط العرب بالعجم، فتطَرَّق إلى اللغة الفساد والعجمة واللحن وغشي هذا الضعف مجالس الخاصة من العرب وأزرى بلهجات الفصحاء

حتى صرت تسمع الأمير على المنبر في المواسم يلحن على الملأ من الأعراب والبلغاء والأشراف.

فغيب على الحجاج لحن، وأثر عن عبيد الله بن زياد مثله وكذلك نقلت لحنات عن أشراف العرب. فكان المُرَبْد يعجُّ بأعلام اللغة والأدب والشعر والنحو معهم محابرههم ودفاترهم يكتبون عن فصحاء الأعراب فيه. وهذه الظاهرة لم تكن في عكاظ فهذا أبو عمرو بن العلاء يسأل الأصمعي: «من أين أقبلت؟ فيجيبه: جئت من المُرَبْد فيقول: هات ما معك: فيقرأ عليه الأصمعي ما كتب في ألواح، فإذا ستة أحرف (كلمات) لم يعرفها أبو عمرو، فيخرج يعدو في الدرجة ويقول الأصمعي: شمّرت في الغريب: أي غلبتني»^(١).

ويشبه المُرَبْد عكاظ في أمر الشعر وحلقاته. بل يزيد عليه فلكل شاعر حلقه ولكل متهاجين مجلس، ولكل قبيلة نادٍ وشاعر يذود عنها، ويردُّ عدوان قريعه من القبيلة الثانية. فللعجاج ولرؤبة حلقة. ولأبي النجم العجلي حلقة، ولجربير والفرزدق وراعي الإبل وذي الرمة لكل منهم حلقة.

(١) النوادر لأبي علي القالي - ص ١٨٢.

وكثر هذا المحصول من الرجز والشعر والنكات الأدبية
كثرةً ملأت أممات كتب الأدب بأخبارها. وفي المرَبَد أطفئت
ثالثة جمرات العرب أطفأها جرير بقصيدته الدمّاعة.

ويتفرّد المرَبَد بأمر علمي محض لم يكن له في عكاظ من أثر،
وهو أنّه أرفد اللغة بمادةٍ كثيرة عليها أسس النحاة قواعدهم
وأصلحوها، وذلك بما كانوا يقصدون له فصحاء الأعراب
يسألونهم فيما فيه يختلفون، ويأخذون عنهم مستفيدين ومتعلّمين
وحسبك أن تقرأ أيّاً شئت من كتب الأدب كالأغاني والأُمالي
والبيان والتبيين والكمال لتجد أنّ أكثر مادتها فيما يتعلّق بالعصر
الأول والثاني للهجرة كان المرَبَد ميدانه وينبوعه.

فمن المرَبَد وعلى هامشه غُذيّ الأدب بقصص وأساطير
كما غُذيّ التاريخ بالأخبار الواقعة، ووضع من وضع من الرواة
والأخباريين أحاديث حاكوا بها ما وقع. وفي حلقاته اضطرعت
الأهواء المتباينة والنزعات المتضاربة وتمضي عشرات السنين
ويصلى العراق بسطوة الحجاج، وإرهابه وتشتدّ الوطأة فلا
يكون المتنفس إلاّ في المرَبَد. إذن كان في المرَبَد أدب وتجارة
و حرب وسياسة كما كان في عكاظ.

وفي أواخر العصر الأموي والقرن الثاني للهجرة نضجت حركة المُرَبَد الأدبية والعلمية نضجاً يتسق مع ما وصلت إليه الدولة من حسن الحال وسعة الأفق ومرافق الحضارة وكان من أبطال المُرَبَد أكبر النحاة ورواة الشعر والأدب والشعراء.

وكان المُرَبَد منشرة للمحامد والمساوي. مسرّه للصديق، وغيظ العدو، فكلُّ من أراد أن يكبت خصماً أو يحقر قبيلة، أو يشهر محمداً طلب لها المُرَبَد يجعلها فيه لتكون أشيع وأسير، وأبلغ في الإرضاء والإغاظة. وسأقوم بعرض مناظر لتكامل الصورة التي وضعت ليكون القارئ ملماً بجميع ما يُعرض ويجري في المُرَبَد على اختلاف المناحي والغايات.

عود بقبر

عبد مكاتب لبني منقر ضاقت حاله ولم يقدر على حيله يجمع بها المال لسيده حتى يعتقه. فلما عيَّ بالأمر أتى قبر غالب أبي الفرزدق فضرب قبّة عليه علامة الاستعاذة، فقدم الناس فأخبروا الفرزدق أنّهم رأوا بناءً على قبر أبيه. قصد المكاتب المُرَبَد وتقصّى الحلقات حلقة حلقة حتى وقف على حلقة الفرزدق حيث يجلس فقال:

بقبر ابن ليلى غالب عذت بعدما
خشيت الردى أو أن أردّ على قسر
فخاطبني قبر ابن ليلى وقال لي:
فكاكك أن تلقى الفرزدق بالمصر
فقال له الفرزدق: (صدق أبي. أنخ أنخ) ثم طاف على الناس
حتى جمع له كتابته فانصرف وقد أنجح مسعاه.

غلام يُجِجِلُ الفرزدق

كان الفرزدق ينشد شعره بالمرّبَد والناس مجتمعون حوله إذ
مرّ به الكميت وهو غلام فوقف، فقال له الفرزدق: «أيسرُّك أنّي
أبوك» فقال الغلام: «أمّا أبي فلا أريد به بديلاً. ولكن يسرني لو
كنت أمي ليدوق أبي عسيلتك!» فقال الفرزدق: «اكتمها على
عمك يا بن أخي فما مرّ بي مثلها!».

تهديم دور الهجّائين

كان للبصرة والّ متنسك يروى عنه الفقه، اسمه الحارث بن
عبد الله المخزومي ولقبه القبّاع^(١) بلغه ما يكون بالمرّبَد من الشر بين

(١) القبّاع: المكيال الضخم ولقب الحارث عبد الله والي البصرة بالقبّاع
لأنّه اتخذ ذلك المكيال إليهم أو لأنهم أتوه بمكيال لهم حين وليهم
فقال: إنّ مكيالكم هذا القبّاع.

جرير والفرزدق وبين حبيهما بسببهما. ولما رأى أنهم غير متتهين
عن ذلك أراد أن يخطو الخطوة الحاسمة بحزم فأمر بالدار التي
ينزلها جرير في المربد والدار التي ينزلها الفرزدق في المقبرة فهدمتا.
وكان القبّاع قد أراد هدم دار الفرزدق قبل هذه المرة في شيء
بلغه، ثم إنه كلّم فيه وهرب الفرزدق. ويظهر أنّ هذا الجزاء
كان شديداً قد بلغ من نفسي الشعارين مبلغاً حتى أنّ الفرزدق
بعدها خنع وتملّق فقال:

أحارث داري مرتين هدمتها
وكنت ابن أخت لا تخاف غوائله
وأنت امرؤ بطحاء مكة لم يزل
بها منكم معطي الجزيل وفاعله
فقلناله لا تشمتنّ عدونا
ولا تنس من أصحابنا من نواصله
وقال جرير في ذلك:

أحارث خذ ما شئت منها ومنهم
ودعنا نقسّ مجدّاً تعدّ فواضله

فما في كتاب الله تهديم دورنا
بتهديم ماخورٍ خبيثٍ مداخله

هجاء إبليس

كان الفرزدق قد أكثر من هجاء (باهله) حتى عيّت هذه
القبيلة بأمرها وكان مما قال فيهم:

أباهلٌ لو أنّ الأنام تنافروا
على أيّهم شرُّ قديماً وأأم
لفاضلكم سهماً لئيم عليهم
ولو كانت العجلان فيهم وجرهم

وقال أيضاً:

ألا كيف البقاء لباهلي
هوى بين الفرزدق والجحيم
ألست إذا نسبت لباهليّ
بأأم من تركض في المشيم^(١)

(١) محل الولد في الرحم.

فلايات المساجد باهلي

وكيف صلاة مرجوسٍ رجيم

إلّا أنّ الله أراد أن يرحمهم، فساق الفرزدق يوماً إلى المزبد
فلقي رجلاً يقال له حمام من موالي باهلة ومعه نحي من
سمن يبيعه. فسامه الفرزدق إياه فقال له: «أدفعه إليك
وتهب لي أعراض قومي» فقبل وقال: يهب له أعراض
قومه ويهجو إبليس:

أطعنك يا إبليس سبعين حجّة

فلما انتهى شيبى وتمّ تامي

فررت إلى ربي وأيقنت أنني

ملاقٍ لأيام المنون حمامي

وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغي

رضاه ولا يقتادني بزمام

سأجزيك من سوءات ما كنت سقتني

إليه جروحاً فيك ذات كلام

ويرجع الخبر بذلك إلى جرير فتنبسط أساريه ويعلوه البشر
إذ سمع هذه الأبيات ورأى لأول مرة كلمة إنصاف من ذلك
الذي ملأ عليه الأرض هجاءً وشرّاً.

إعدام قبيلة

كان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد
بالبصرة يجلسون فيها وكان الراعي قد ضخم أمره، فدخل في
المنافرة بين جرير والفرزدق وقضى على الأول للثاني وكان فيما قاله:

يا صاحبيّ دنا المسير فسيرا

غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

وقال:

رأيت الجحش جحش بني كليب

تيمّم حوض دجلة ثمّ هابا

«يعني جريراً» فلما أكثر الراعي من ذلك قال جرير لرجال
من قومه: «هلا تعجبون لهذا الرجل الذي يقضي للفرزدق عليّ
وهو يهجو قومه وأنا أمدحهم».

ثم خرج جرير ذات يوم يمشي ولم يركب دابته لئلا يعلم به أحد، فتعرض للراعي يريد أن يلقاه من حيال حيث كان يمرُّ إذا انصرف من مجلس بالمرَبَد. فمرَّ الراعي على بغلته، وابنه جندل يسير وراءه على مهر له أحوى، وإنسان معه يسأله عن بعض الأمر. فلما استقبل جرير الراعي قال له: «مرحباً بك يا أبا جندل» و ضرب بشماله على معرفة بغلته. ثم قال: يا أبا جندل «إنك شيخ مضر وشاعرها، وقد بلغني أنك تفضِّل عليَّ الفرزدق تفضيلاً قبيحاً وهو ابن عمي دونك، فإن كان لا بدَّ من تفضيل فأنا أحقُّ به لمدحي قومك وذكري إياهم. ويكفيك من ذلك إذا ذكرنا أن نقول: كلاهما شاعر كريم ولا تحتمل منه ولا منه لائمة» فيينا جرير كذلك أقبل ابن الراعي جندل حتى ضرب عجز دابة جرير حتى كاد يقطع إصبع رجله وقال لأبيه: لا أراك واقفاً على كلب من بني كليب كأنك تخشى منه شراً أو ترجو منه خيراً».

و ضرب البغلة ضربة فرمحت جريراً رمحة وقعت منها قلنسوته. قال جرير: «والله لو عرج على الراعي لقلت سفية غويُّ (يعني جندلاً ابنه) ولكن لا والله ما عاج / فأخذت قلنسوتي فمسحتها ثم أعدتها على رأسي».

فانصرف جرير غضبان حتى إذا صلى العشاء بمنزله في عليّة له قال: «ارفعوا لي باطيّة نبيذ، وأسر جوالي، ففعلوا فجعل يهيمهم فسمعت صوته عجوز في الدار. فاطلعت في الدرج حتى نظرت إليه فإذا هو يجبو في الفراش عرياناً لما هو فيه فانحدرت فقالت: «ضيفكم مجنون رأيت منه كذا وكذا» فقالوا لها: «اذهبي لطيّتك نحن أعلم به وبما يمارس فما زال كذلك حتى كان السحر ثم إذا هو يكبرّ قد قالها ثمانين بيتاً في نمير فلما ختمها بقوله:

فغضّ الطرف إنك من نمير

فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

كبرّ ثم قال: أخزيتته ورب الكعبة. ثم أصبح حتى إذا عرف أنّ الناس قد جلسوا في مجالسهم بالمربد وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق دعا بدهن فأدهن وكفّ رأسه وكان حسن الشعر ثم قال: «يا غلام أسرج لي» فأسرج له حصاناً ثم قصد مجلسهم حتى إذا كان موقع السلام قال: «يا غلام» ولم يسلم.

«قل لعبيد: أبعثك نسوتك تكسبهنّ المال بالعراق؟ أما والذي نفس جرير بيده لترجعنّ إلى أهلك بمير يسؤوهنّ

ولا يسرهنّ. أما أنا فقد بعثني أهلي لأقعد على قارعة هذا
المربد. فلا يسبهم أحد إلا سبته. وإنّ عليّ نذراً: «إن جعلت في
عينيّ غمضاً حتى أخزيك» ثمّ اندفع جرير في قصيدته:

أقليّ اللوم عاذلٍ والعتابا

وقولي إن أصبت لقد أصابا

فأنشدها فنكس الفرزدق وراعي الإبل، وأزمّ القوم حتى إذا
بلغ قوله:

بها برصٌ بجانب اسكتيها...

وضع الفرزدق يده على فيه وغطّى عنقه لئلا يفطن جرير
فيخزيه في مجلسه ذلك. ففطن لها جرير فأتّم البيت وهكذا
وكأنّ الفرزدق لقّنه إياه:

بها برصٌ بجانب اسكتيها

كعنفة الفرزدق حين شاباً^(١)

(١) الإسكة: جانب فرج المرأة وهما إسكتان. العنفة: شعر ما بين الشفة
السفلى والذقن.

ولعلَّه في الأصل علي غير ذلك. فانصرف الفرزدق وهو يقول: «اللَّهَمَّ أَخْزِهِ وَاللَّهُ لَقَدْ عَلِمْتَ حِينَ بَدَأَ بِالْبَيْتِ أَنَّهُ لَا يَقُولُ غَيْرَ هَذَا، وَلَكِنْ طَمَعْتَ بِالسَّلَامَةِ فَغَطَّيْتَ وَجْهِي فَمَا أَغْنَانِي ذَلِكَ شَيْئاً.

واسترسل جرير في الإنشاد حتى بلغ قوله مخاطباً الراعي:

فغَضَّ الطرفَ إنَّكَ من نميرٍ

فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

وسرعان ما تناقل هذا البيت أهل المربد، وانفض المجلس عليه.

وسار الراعي فوجد البيت سبقه إلى أهله وقومه فاستحيا ورحل.

سلاطه

كان المربد يفسح مجالاً لمتعصبيّة الشعوبية وأراذلهم فينالون من الحسب الزاكي والأصل الكريم، وكانوا يدسّون سمومهم في أفكار الموالي والعييد. قال الأصفهاني: «ووقف رجل من بني زيد شريف لا أحبّ أن أسمّيه على بشار. فقال له: يا بشار، قد أفسدت علينا موالينا. تدعوهم إلى الانتفاء منا، وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم، وترك الولاء، وأنت غير زاكي الفرع،

ولا معروف الأصل» فقال له بشار: «والله لأصلي أكرم من الذهب، ولفرعي أزكى من عمل الأبرار وما في الأرض كلبٌ يودُّ أن نسبك له بنسبه. ولو شئت أن أجعل جواب كلامك شعراً لفعلت؛ ولكنّ موعداً غداً بالمزبد» فرجع الرجل إلى منزله وهو يتوهم أنّ بشار يحضر معه المزبد ليفاخره. فخرج من الغد يريد المزبد فإذا رجل ينشد:

شهدت على الزيدي أنّ نساءه...

وأفحش بشار في تتمّة البيت فارتاع الشريف وسأل عمن قال هذا البيت فقيل له: «هذا لبشار فيك» فرجع إلى منزله ولم يدخل المزبد حتى مات. فانظر في بضاعة المزبد هذه، واعجب كيف ينقبض فيه الأخيّار ويتسلّط الأشرار.

مجلس

قال شبيب بن شيبة أحد بلغاء العرب وجليس الملوك: كنا وقوفاً بالمزبد إذ أقبل عبد الله بن المقفع. فتشبّثنا به وبدأناه بالسلام فردّ علينا السلام ثمّ قال: «لو ملتم إلى دار نيروز، وظلّها الظليل وسورها المديد، ونسيمها العجيب. فقبلنا وملنا

ولما استقرّ بنا المكان قال لنا: «أيُّ الأمم أعقل؟» فنظر بعضنا إلى بعض فقلنا لعله أراد أصله فارس فقلنا: «فارس» فقال: «ليسوا بذلك. إنهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيماً من الملك، وغلبوا على كثير من الخلق فما استنبطوا شيئاً بعقولهم. قلنا: «فالروم» قال: «أصحاب صنعه». قلنا: «فالصين» قال: «أصحاب طرفه» قلنا: «فالهند» قال: «أصحاب فلسفة» قلنا: «فالسودان» قال: «شرُّ خلق الله» قلنا: «فالترك» قال: «كلاب مختلصة» قلنا: «فالحزر» قال: «بقر سائحه» قلنا: «فقل» قال: «العرب» فضحكنا.

فقال: «أمّا إني ما أردت موافقتكم. ولكن إن فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة. إنّ العرب حكمت على غير مثال مثل لها أصحاب إبل وغنم وسكان شعر وأدم. يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره، ومعسوره. ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجّة، ويحسن ما شاء فيحسن، ويقبح ما شاء فيقبح. أدبتهم أنفسهم، ورفعتهم هممهم، وأعلتهم قلوبهم، وألستهم فلما يزل حياء الله فيهم وحباًؤهم في أنفسهم حتى رفع لهم

الفخر وبلغ بهم أشرف الذكر، وختم لهم بملكهم الدنيا على
الدهر، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر. الخير فيهم ولهم.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف - ١٢٨/٧)

فمن وضع حقهم خسر. ومن أنكر فضلهم خُصِم. ودفعُ
الحق باللسان أكبت للجنان.

إعلان مجلجل

وإليك بعد أن استمتعت بعلم ابن المقفّع وأدبه صراعاً يُخيّل
إليك إذ تقرأه أنّه كان في الأوملياد لأحد أبطال يونان، أو أنّه
جرى على غرار ما يجري في بلاد الإسبان على يد مصارعِي
الثيران بطله فارس عربي شجاع شديد البأس والبطش
هو هلال بن الأسعر أحد الجبّارين العمالقة الضخام كأنّه قوم
عاد. كان هلال هذا أعظم الناس غناء في حرب، يرد مع الإبل
فيأكل كل ما وجد عند أهله ثم يرجع لا يذوق
فيما بين ذلك طعاماً ولا شرباً عمراً طويلاً ومات بعد بلايا
عظام مرّت على رأسه.

«كان يوماً في إبلٍ له، وذلك عند الظهيرة في يوم شديد وقع الشمس، محتدم الهاجرة وقد عمد على عصاه فطرح عليها كسائه ثم أدخل رأسه تحت كسائه من الشمس وبينما هو كذلك إذ مرَّ به رجلان قد أقبلا من البحرين ومعهما أنواع من تمر هجر فلما انتهيا إلى الإبل ولا يعرفان هلالاً بوجهه ولا يعرفان أن الإبل له ناديا: «يا راعي أعندك شراب تسقيننا؟» وهما يظنانه عبداً لبعضهم. فناداهما هلال ورأسه تحت كسائه: «عليكما الناقة التي صفتها كذا في موضع كذا، فأنيخاها فإنَّ عليها وطبين من لبن فاشربا منها ما بدا لكما» فقال أحدهما: «ويحك، انهض يا غلام فأتِ بذلك اللبن» فقال لهما: «إن تك لكما حاجة فستأتيانها فتجدان الوطبين فتشربان».

قال احدهما: «إنك يا ابن اللخناء لغلظ الكلام. قم فاسقنا» ثم دنا من هلال وهو على تلك الحال. فقال لهما هلال: «أراكما والله ستلقيان هوأنا وصغاراً» فسمعا ذلك منه، فدنا أحدهما فأهوى له ضرباً بالسوط على عجزه، وهو مضطجع فتناول هلال يده فاجتذبه إليه ورماه تحت فخذه، ثم ضغطه ضغطةً، فنادى فاجتذبه فرمى به تحت فخذه الأخرى، ثم أخذ برقابها

فجعل يصكُّ برؤوسهما بعضاً ببعض. لا يستطيعان أن يمتنعا منه فقال أحدهما: «كن هلالاً ولا نبالي بما صنعت» فقال لهما: «أنا والله هلال، والله لا تفلتان مني حتى تعطيني عهداً وميثاقاً لا تخيسان به. لتأتيا المرَبْد إذا قدمتما البصرة ثم لتناديان بأعلى أصواتكما بما كان مني ومنكما» فعاهداه وأعطياه نوطاً من التمر الذي معها وقدا البصرة فأتيا المرَبْد فناديا بما كان منه ومنهما. وكان إعلان طنَّان دَوَّى في فضاء المرَبْد.

الرجز بين العجَّاج وأبي النجم^(١).

أبو النجم هو الفضل بن قدامه من عجل وكان ينزل بسواد الكوفة في موضع يقال له: «الفرك» وراجز العجَّاج فخرج العجَّاج على ناقية له كوماء وعليه ثياب حسان وخرج أبو النجم على جمل له مهنوء وعليه عباءة فأنشد العجَّاج:

قد جَبَّرَ الدِّينَ الإلهَ فَجَبَّرَ

ثم أنشد أبو النجم:

(١) الشعر والشعراء - ابن قتيبة الدينوري - دار الكتب العلمية - لبنان -

ص ٣٠١/٣٠٢.

تذكّر القلب وجهلاً ما ذكر

حتى إذا بلغ إلى قوله:

إني وكلُّ شاعرٍ من البشر

شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

فما رأني شاعرٌ إلاّ استتر

فِعَل نجوم الليل عاين القمر

فلما فرغ من إنشاده حمل جملة على ناقة العجاج يريدُها

فضحك الناس وانصرفوا وهم ينشدون قوله:

شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وأنشد أبو النجم هشام بن عبد الملك أرجوزته التي أولها:

الحمدُ لله الوهوبِ المُجزِل

وهي أجود أرجوزه للعرب.

بين الفرزدق ورجل من اليمامة

قال أبو عبيدة كان الفرزدق بالمرَبَد فمرَّ به رجلٌ قدم من

اليمامة فقال له: من أين وجهُك؟ قال: من اليمامة. قال: فهل

علقت من جرير شيئاً فأنشده:

هاج الهوى بفؤادك المهتاج
فقال الفرزدق: فانظر بتوضيح باكر الأحداج
فقال: هذا هوى شغف الفؤاد مبرح
فقال الفرزدق: ونوى تقاذف غير ذات خلاج
فقال: ليت الغراب غداة ينعب دائماً
فقال الفرزدق: كان الغراب مقطّع الأوداج
فما زال الرجل ينشده صدرأ من قول جرير وينشده الفرزدق
عجزاً حتى ظنّ الرجل أنّ الفرزدق قالها وأنّ جريراً سرقها، ثمّ
قال له: هل ذكر فيها الحجّاج. قال: نعم. قال: إيّاه أراد.
وهكذا جمع المزيّد بطولة القوة والصراع والجبروت البدني إلى
جانب بطولة الشعر والأدب والخطابة فكان معرضاً تام الأداء،
وافي الفروع. وتمّ لأسواق العرب به خاتمة المزايا والكمال.
وأصبح في وسع من شاء الاستمتاع بأكثر عادات العرب
وأخلاقهم ودينهم وسياستهم وأدبهم وسباقهم وصراعهم أن
يفوز بأمنيته من أقصى الطريق إذا استذكر ما كانت عليه
أسواقهم في الجاهلية والإسلام.

مراجع البحث

- ١- أبو فرج الأصبهاني - الأغاني - بيروت - دار صعب ١٩٨٧.
- ٢- الجاحظ - البيان والتبيين - دار الجيل - بيروت.
- ٣- المبرّد - الكامل - بيروت - ١٩٩٣.
- ٤- أبو علي القالي - النوادر.
- ٥- ابن قتيبة الدينوري - الشعر والشعراء - دار الكتب العلمية - لبنان.
- ٦- المرزوقي - الأزمنة والأمكنة - لبنان ١٩٨٧.
- ٧- سعيد الأفغاني - أسواق العرب - دار الفكر ١٩٩٤.

مجالس معاوية بن أبي سفيان

تولّى الأمويون^(١) الخلافة في الشام، وقد لبثت خلافتهم تسعين سنة، أظهروا فيها من جهة تعلقاً شديداً بالعرب والعروبة، وخرجوا من جهة أخرى عن تقاليد إسلامية كثيرة. وقد حافظ الخلفاء الأمويون على الثقافة العربية، فنشأوا أبناءهم بالبادية يتعلمون فيها الشعر والأدب واللغة، وكانوا يعقدون المجالس الأدبية ويستدعون الرواة والأدباء والشعراء، ويُجزلون لهم العطاء، كما جعلوا الخلافة مُلكاً وراثياً، وابتنوا القصور، وأنفقوا الأموال في سبيل البذخ والترف، ولقد استعان معاوية لتوطيد مُلكه بأسرته، وبالقبائل العربية المقيمة في بلاد الشام، ثم احتال على القبائل الأخرى فضرب بعضها ببعض، وبذلك أحيا العصية القديمة التي

(١) حنا الفاخوري - تاريخ الأدب العربي - ص ٢١٠.

حاربها الإسلام، ورجع الأدب إلى ما كان عليه في الجاهلية، تحفزه السلطة بما تغدق على المدّاحين من مالٍ ونعيم، فكان أدباً نشيطاً إلاّ أنّه كان مُستعبداً يخدم المصالح الحزبية والفردية، ولا يخلّق في أجواء الفن الطليقة.

ولقد كان معاوية يستقدم الشعراء والأدباء والخطباء إلى مجلسه ويستمع إلى قصائدهم ومناظراتهم وآرائهم، ويشارك فيها بشعره وآرائه فيها هو يسأل عمرو بن العاص^(١): ما بلغ من عقلك؟ قال: ما دخلت في شيءٍ قط إلاّ خرجت منه، فقال معاوية: لكني ما دخلت في شيءٍ قط وأردت الخروج منه.

وأرسل معاوية إلى الأحنف^(٢) بن قيس فقال: يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟ قال: ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، ولا تكن عليهم ثقيلاً فيملؤا حياتك، ويُحبوا وفاتك، فقال: لله أنت يا أحنف!!

(١) ابن عبد ربّه - العقد الفريد - ج ٢ - ص ٦١.

(٢) ابن عبد ربّه - العقد الفريد - ج ٢ - ص ٢٤٣.

لقد دخلت عليّ وإني لمملوء غضباً على يزيد، فسألته من قلبي. ودخل أبو الأسود الدؤلي على معاوية وقد خضب، فقال له: لقد أصبحت يا أبا الأسود جميلاً؛ فلو علقت تيممة فأنشأ أبو الأسود يقول:

أفنى الشباب الذي فارقتُ بهجته
مَرُّ الجديدين من آتٍ ومنطلق
لم يُقيالي من طول اختلافها
شيئاً يُخاف عليه لذعةُ الحدقِ

ودخل معاوية على ابن جعفر يعوده؛ فوجده مُفيقاً وعنده جارية في حجرها عود؛ فقال: ما هذا يا بن جعفر؟ فقال: هذه جارية أروّيها رقيق الشعر، فتزيده حسناً بحسن نغمتها، قال: فلتقل، فحرّكت عودها وغنّت، وكان معاوية قد خضب.

أليس عندك شكرٌ للتي جعلت
ما ابيضّ من قدمات الريش كالحُمم
وجددت منك ما قد كان أُخلقه
ريب المنون وصرف الدهر والقدم

فحرّك معاوية رجله، فقال له ابن جعفر: لم حرّكت رجلك
يا أمير المؤمنين؟ قال: كلّ كريم طروب^(١).

وقال معاوية لصحّار العبدي^(٢): يا أزرق، قال: البازيُّ
أزرق، قال: يا أحمر، قال: الذهب أحمر، قال: ما هذه البلاغة
فيكم عبد القيس؟ قال: شيءٌ يختلج في صدورنا، فتقدفه ألسنتنا
كما يقذف البحر الزبد، قال: فما البلاغة عندكم؟ قال: أن تقول
فلا تخطئ وتجيّب فلا تبطئ.

وقد وفدت على معاوية في مجلسه سودة ابنة عمارة الهمدانية،
وبكارة الهلالية، والزرقاء ابنة عدي بن غالب، وعكرشه
بنت الأطرش، وهؤلاء كنَّ من أشدّ المعارضات له
والمدافعات عن سيّدنا عليٍّ في معركة صفّين، ولكنّه أكرم
وفادتهنَّ، وأعطاهنَّ حاجتهنَّ.

ولدارمة الحجونية معه قصّة مشهورة، فدارمه هذه كانت
تنزل بالحجون، وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها،
فبعث إليها، فجيء بها.

(١) المصدر نفسه - ج ٢ - ص ٣٢٦.

(٢) المصدر نفسه - ج ٤ - ص ١٠١.

فقال: ما حالك يا بنة حام؟ فقالت: لست لحامٍ إن عبتني، أنا امرأة من كنانة، قال: صدقت، أتدرين لم بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً، وأبغضتني، وواليته وعاديتني؟ قالت: أو تعفيني؟ قال: لا أعفيك، قالت: إنني أحببت علياً على عدله في الرعيّة وقسمه بالسويّة، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر وطلبتك ما ليس لك بحق.

قال: فلذلك انفتح بطنك، وعظم ثدياك، وربت عجيزتك!! قالت: يا هذا بهند، والله، كان يضربُ المثل لا بي، قال معاوية: يا هذه اربعي؛ فانا لم أقل إلا خيراً، إنه إذا انفتح بطن المرأة تمّ خلقُ ولدها، وإذا عظم ثديها تروى رضيعها، وإذا عظمت عجيزتها وزُن مجلسها، فرحبت وسكنت، فهل لك من حاجه؟ قالت: أو تفعل إذا سألتك؟

قال: نعم، قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها، قال: ماذا تصنعين بها؟ قالت: أغذو بألبانها الصغار، واستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح ما بين العشائر.

فأعطاها، فأنشأ معاوية يقول^(١):

إذا لم أعد بالحلم مني عليكم
فمن ذا الذي بعدي يؤمّل للحلم
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجدٍ
جزاك على حرب العداوة بالسّلم
وكان مع معاوية النعمان بن بشير الأنصاري الذي بلغه أنّ
الأخطل هجاه بقوله^(٢):

ذهبت قريشٌ بالمكارم كلّها
واللؤم تحت عمائم الأنصار
قومٌ إذا حضر العُصيّرُ رأيّتهم
حمراً عيونهم من المسطار
وإذا نسبت إلى الفريعة خلته
كالجحش بين حمارةٍ وحمار

(١) ابن عبد ربّه - العقد الفريد - ج ١ - ص ٢٩٩.

(٢) المصدر نفسه - ج ٦ - ص ١٤٦.

فدخل على معاوية ثم حسر العمامة عن رأسه، وقال:
يا معاوية هل ترى من لؤم؟ قال: ما أرى إلاّ كرماءً، قال:
فما الذي يقول فينا عبد الأراقم؟ قال: حكمتك فيه. قال: والله
لا رضيت إلاّ بقطع لسانه، ثمّ قال:

مُعَاوِي إِلاّ تَعْطِنَا الْحَقَّ تَعْتَرِفْ

لِحَيِّ الْأَزْدِ مَشْدُوداً عَلَيْهَا الْعِمَائِمُ

أَيْشْتَمِنَا عَبْدَ الْأَرَاقِمِ ضِلَّةً

وَمَا الَّذِي تَجْدِي عَلَيْكَ الْأَرَاقِمِ

فَمَا لِي ثَارٌ دُونَ قَطْعِ لِسَانِهِ

فَدُونَكَ مَنْ تَرْضِيهِ عَنْكَ الدَّرَاهِمُ

فقال معاوية: قد وهبتك لسانه، وبلغ الأخطل فلجأ إلى يزيد
بن معاوية، فركب يزيد إلى النعمان، فاستوهبه إياه فوهبه له،
وسأل معاوية صعصعة بن صوحان: ما الجود؟ قال: التبرُّع
بالمال والعطيّة قبل السؤال.

وقد قال معاوية لعمر بن العاص^(١): هل غششتني منذ نصحتني؟ قال: لا. قال: بلى، يوم أشرت عليّ بمبارزة عليّ، وأنت تعلم من هو! فقال عمرو دعاك رجل عظيم الخطر إلى المبارزة، فكنت من مبارزته على إحدى الحسينيين. إمّا إن قتلته فقد قتلت قتال الأقران، وازددت شرفاً إلى شرفك، وخلوت بملكك، وإمّا إن قتلك فتعجّل مرافقة الشهداء والصدّيقين والصالحين. قال معاوية: لهذه أشدُّ عليّ من الأول، فقال عمرو: أفكنت من جهادك في شك فتكون منه الساعة! قال: دعني منك الآن.

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب^(٢)، وكان جيّد الجواب حاضره: أنا خيرٌ لك من أخيك، فقال عقيل: إنّ أخي أثر دينه على دنياه، وأنت أثرت دنياك على دينك، فأخي خير لنفسه منك، وأنت خير لي منه.

وقال له يوماً وقد دخل عليه: هذا عقيل عمُّه أبو لهب. فقال عقيل: هذا معاوية عمّته حمالة الخطب، وعمّة معاوية أم جميل بنت حرب بن أمية وكانت امرأة أبي لهب.

(١) أمالي المرتضى - مجلد ١ - ص ٢٩٢.

(٢) ابن عبد ربّه - العقد الفريد - ج ٤ - ص ٧٨.

وقال له يوماً: يا أبا يزيد! أين ترى عمّك أبا هب؟ فقال له عقيّل: إذا دخلت النار فانظر عن يسارك تجده مفترشاً عمّتك فانظر أيّهما أسوأ حالاً الناكح أم المنكوح^(١).

ودخل نخار العبدى على معاوية في عباءة، فاحتقره معاوية، فرأى ذلك النخار في وجهه، فقال له: يا أمير المؤمنين، ليست العبائة تكلمك، إنّما يكلمك من فيها، ثمّ تكلم فملاً سمعه ثم نهض ولم يسأله، فقال معاوية^(٢): ما رأيت رجلاً أحقر أوّلاً ولا أجلاً آخراً منه.

وفي مجلس معاوية كانت تحصل مناظرات بينه وبين ابن عباس وابن الزبير والحسن وغيرهم من الصحابة والتابعين في القضايا السياسية التي تتعلّق بالخلافة والحكم. وكان رجال منهم يجاوبون بجرأة ويردّون على معاوية بلا خوف أو وجل.

ومن أمثلة ذلك أنّ معاوية^(٣) قال لجارية بن قدامة: ما كان أهونك على أهلِكَ إذ سمّوك جارية، قال: ما كان أهونك على

(١) المصدر نفسه - ص ٧٩.

(٢) المبرّد - الكامل - ج ٢ - ص ٦٩٩.

(٣) ابن عبد ربّه - العقد الفريد - ج ٤ - ص ٩٧.

أهلك إذ سمّوك معاوية، وهي الأنثى من الكلاب، قال: لا أمّ لك!
قال: أمي ولدتني للسيوف التي لقيناك بها في أيدينا، قال: إنك
لتهدّدي! قال: إنك لم تفتحنا قسراً، ولم تملكننا عنوةً؛ ولكنك أعطيتنا
عهداً وميثاقاً، وأعطيناك سمعاً وطاعة. فإن وفيت لنا وفينا لك،
وإن فزعت إلى غير ذلك فإننا تركنا وراءنا رجالاً شداداً وألسنة
حداداً. وحصل مثل ذلك مع الأحنف بن قيس وعدي بن حاتم،
وصعصعة بن صوحان، وعقيل بن أبي طالب، ومجموعة النسوة
اللواتي كنّ من أشد المعارضات له في صفين.

وذكر الواقدي^(١) قال: دخل عمرو بن العاص يوماً على
معاوية بعد ما كبر ودقّ ومعه مولاه وزدان، فقال عمرو:
يا أمير المؤمنين، ما بقي مما تستلذه؟ فقال: أمّا النساء فلا أرب
لي فيهن، وأمّا الثياب فقد لبست من لئنها وجيّدتها حتى وهى
بها جلدي فما أدري أيّها ألين، وأمّا الطعام فقد أكلت من لينه
وطيبه حتى ما أدري أيّها ألذُّ وأطيب، فما ألذُّ عندي من
شراب بارد. في يوم صائف، ومن أن أنظر إلى بنيّ وبني بنيّ
يدورون حولي.

(١) المسعودي - مروج الذهب - ج ٣ - ص ٣٢.

فما بقي منك يا عمرو؟ قال: مال فأغرسه فأصيب من ثمرته، ومن غلته فالتفت معاوية إلى وردان فقال: ما بقي منك يا وردان؟ قال صنيعةٌ كريمةٌ سنيةٌ أعلّقها في أعناق قوم ذوي فضل وأخطار لا يكافئوني بها حتى ألقى الله تعالى، وتكون لعقبى في أعقابهم بعدي.

فقال معاوية: تَبّاً لمجلسنا سائر هذا اليوم، إنَّ هذا العبد غلبني وغلبك.

وبلغ من دهاء^(١) معاوية أن رجلاً من أهل الكوفة دخل على بغير له إلى دمشق فتعلّق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي، أخذت مني بصفتين فارتفع أمرهما إلى معاوية، وأقام الدمشقي خمسين بينة يشهدون أنّها ناقتة، فقضى معاوية على الكوفي، وأمره بتسليم البعير إليه، فقال الكوفي: أصلحك الله! إنّه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم قد مضى ودسّ إلى الكوفي بعد تفرّقهم فأحضره، وسأله عن ثمن بعيره فدفع إليه ضعفه وبرّه وأحسن إليه، وقال له: أبلغ عليّاً أنّي أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرّق بين الناقة والجمل.

(١) المصدر نفسه - ص ٤٢.

ودخل الأحنف بن قيس^(١) على معاوية بن أبي سفيان، فأشار إلى الوساد فقال له: اجلس، فجلس على الأرض، فقال له معاوية: وما منعك يا أحنف من الجلوس على الوساد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ فيما أوصى به قيسُ بن عاصم المنقريُّ وكَدِه أن قال: "لا تَعشَّ السلطان حتى يملك، ولا تقطعه حتى ينسأك، ولا تجلس له على فراش أو وساد، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين، فإنَّه عسى أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس منك فتقام له، فيكون قيامك زيادة له، ونقصاناً عليك، حسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين لعله أن يأتي من هو أولى مني؛ فقال معاوية: لقد أوتيت تميمَ الحكمة، مع رِقَّة حواشي الكلم، وأنشأ يقول:

يا أيُّها السائل عما مضى
وعلم هذا الزَّمن العائب
إن كنت تبغي العلم وأهله
أو شاهداً يخبر عن غائب

(١) الجاحظ - البيان والتبيين - ج ١ - ص ٥٣.

فَاعْتَبِرِ الْأَرْضَ بِسُكَّانِهَا

وَاعْتَبِرِ الصَّاحِبَ بِالصَّاحِبِ

وقد أصبح لمعاوية بعد أن ظفر بالملك ووطد الدولة، ووسّع رقعتها عدد من الزوجات، ربما كانت أحظاهنّ عنده ميسون، وهي عربية سورية من بني مجدل من قبيلة كلب، وكانت تحقر حياة البلاط في دمشق، وتؤثر عليها حياة البادية التي ألفتها، وإليها ينسب الرواة الأبيات المشهورة التي منها:

لَيْتَ تَخْفَقُ^(١) الْأَرْيَاحُ فِيهِ

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مَنِيْفِ

وَلِبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّرَ عَيْنِي

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لِبْسِ الشَّفُوفِ

وَأَكُلُ كَسِيرَةً فِي كَسْرِ بَيْتِي

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الرِّغِيْفِ

وَأَصْوَاتِ الرِّيحِ بِكُلِّ وَادٍ

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَقْرِ الدَّفُوفِ

(١) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - ج ٢ - ص ٢٣٨.

وقد أوتي معاوية نصيباً من اللباقة والحنكة السياسية لم ينل مثله فيما يرَّجَحُ خليفةً آخر.

فكان يقرن لينه بالحزم، ويملك نفسه، ويكظم غيظه، ومن هنا استطاع أن يكون سيِّدَ موقف، ولقد رُوي عنه أنه كان يقول^(١): «لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعره ما انقطعت، إذا مدُّوها خلَّيتها، وإذا خلُّوها مددتها».

ومن طريف ما ورد عن معاوية^(٢) في مجلسه أنه: دخل عليه شريك الأعور وكان دميماً، فقال له معاوية: إنَّك الدميم والجميل خير من الدميم. وإنَّك لشريك وما لله شريك، وإنَّ أباك الأعور، والصحيح خيرٌ من الأعور، فكيف سُدت قومك؟!.

فقال له: إنَّك معاوية، وما معاوية إلاَّ كلبه عوت فاستعوت الكلاب، وإنَّك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنَّك لابن حرب، والسلام خير من الحرب، وإنَّك لابن أمية، وما أمية إلاَّ أمة صغرت فكيف صرت أمير المؤمنين.

(١) البغدادي - من كتاب الفصوص - ص ١٣٩.

(٢) الأبشيهي - المستطرف في كل فن مستظرف - ص ١٠٢.

ورُوي أنه كانت لأعرابي^(١) من بني عذرة امرأة جميلة، فنزل به الفقر بعد غنى، وذلل بعد عزٍّ، فسعى والي المدينة مروان بن الحكم إلى تطليق زوجته منه لهذا السبب، وكان في دخيلة نفسه يريد الزواج منها بعد ذلك.

فرفع الرجل دعواه إلى معاوية، فأمر بإحضارها، فلما رأى جمالها أعجبته، فقال لزوجها: إننا نخيرها بيننا نحن الثلاثة، فقال الرجل: ذلك إليك يا أمير المؤمنين، فقال لها معاوية: يا سعدى، أئنا أحبُّ إليك؟ أمير المؤمنين في عزّه وشرفه وقصوره، أم مروان بن الحكم في غضبه، واعتدائه، أم الأعرابي في جوعه وأطماره؟ فأشارت إلى زوجها الأعرابي وقالت:

هذا وإن كان في جوع وأطمار
أعزُّ عندي من أهلي ومن جاري
وصاحب التاج أو مروان عامله
وكلّ ذي درهمٍ منهم ودينار

(١) الأب لويس شيخو اليسوعي - مجاني الأدب - ج ٢ - ص ٢١٥.

ثم أضافت: يا أمير المؤمنين لست لحدثان الدهر بخاذلته، وقد كانت لي معه عيشة راضية، وأنا أحقُّ من صبرَ معه على السراء والضراء وعلى العافية والبلاء، وعلى القسم الذي كتبه الله لي منه، فتعجَّب معاوية من عقلها ومروءتها وعفَّتْها وأعادها إلى زوجها وأمر لها بعشرة آلاف درهم.

وروي أنَّ معاوية قال لعقيل بن أبي طالب: إنَّ علياً قد قطعك ووصلتك، ولا يُرضيني منك إلاَّ أن تلعنه على المنبر! قال: أفعل. فأصعد فصعد ثمَّ قال: بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيُّها الناس: إنَّ أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب فالعنوه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. ثمَّ نزل، فقال له معاوية: إنَّك لم تبين من لعنت، قال: والله لا زدت حرفاً ولا نقصت آخراً، والكلام إلى نيَّة المتكلِّم.

وذكر أنَّ معاوية لما احتُضر تمثَّل:

هو الموت لا منجى من الموت والذي

تحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

ثم قال: اللهم أقلِ العثره، واعف عن الزلّة، وُجد بحلمك
على جهل من لم يرجُ غيرك، ولم يثق إلاّ بك، فإنّك واسع
المغفرة، وليس لذي خطيئةٍ مهرب.

ومن الجفّاة عند الموت هُدبه^(١) بن خَشْرَم العذري وكان قتل
زيادة بن زيد العذريّ، فلما حُمِلَ إلى معاوية تقدّم معه عبد الرحمن
أخو زيادة، فادّعى عليه، فقال له معاوية: ما تقوم؟ قال: أتحبُّ أن
يكون الجواب شعراً أم نثراً؟ قال: بل شعراً فإنّه أمتع، فقال هُدبه:

فلما رأيتُ أنّها هي ضربةٌ

من السيف أو إغضاء عين على وترٍ

عمدت لأمرٍ لا يعيرّ والدي

خزائنه ولا يُسبُّ به قبري

رؤينا فرامينا فصادف سُهمنا

منيّة نفسٍ في كتاب وفي قدرٍ

وأنت أمير المؤمنين فما لنا

وراءك من معدى ولا عنك من قصرٍ

(١) المبرّد- الكامل - ج ٣ - ص ١٤٥٢.

فإن تك في أموالنا لا نُضِقْ بها
ذراعاً، وإن صبرٌ فنصبر للصبر

فقال له معاوية: أراك قد أقررت يا هديبه! قال: هو ذاك،
فقال عبد الرحمن أقدني، فكره ذلك معاوية، وضمن بهديه من
القتل، وكان ابن زياده صغيراً، فقال له معاوية: وما عليك أن
تشفى صدرك، وتحرم غيرك! ثم وجه به إلى المدينة، فقال:
يُجَبَسُ إلى أن يبلغ ابن زياده.

مراجع البحث

- ١ - حنا الفاخوري - تاريخ الأدب العربي.
- ٢ - ابن عبد ربه - العقد الفريد
- ٣ - الجاحظ - البيان والتبيين - دار الجيل - بيروت.
- ٤ - المبرّد - الكامل - بيروت - ١٩٩٣.
- ٥ - المسعودي - مروج الذهب - بيروت - دار المعرفة.
- ٦ - الأبشيهي - المستطرف في كلّ فن مستطرف - دار الجيل - بيروت - ١٩٩٢.
- ٧ - البغدادي - كتاب الفصوص - وزارة الثقافة - دمشق - ٢٠٠١.
- ٨ - أمالي المرتضى.
- ٩ - اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - بيروت - دار الجيل.

مجالس عبد الملك بن مروان

كانت قصور الخلفاء مقصد الناس في كل شيء، وإليها يفد الشعراء بمدائحهم، فإذا أنشد الشاعر قصيدة أنشدها على ملاء من الناس. وأكثر النقد الذي عرفته بيئة الشام صدر عن الخلفاء والأمراء لسعة إحاطتهم باللغة والأدب، ولمعرفتهم الدقيقة بمحاسن الكلام، ولمشاركتهم الفعلية فيما كان يجري من حوار أو نقاش.

ولما كان عبد الملك هو شيخ الحلبة، وخير من عرض للشعر بالنقد فإننا سنتناول ذلك بشيء من التفصيل.

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، وهو ثاني الخلفاء في دولة آل مروان، وخامس الخلفاء الأمويين، ولد سنة ٢٦هـ ومات عام ٨٦هـ.

كان عبد الملك من أعظم خلفاء بني أمية، كتب الدواوين بالعربية، وأصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الإدارة، وكان إلى جانب صفاته النفسية القويّة شديد الحفظ للكتاب والسنة، جيّد الفقه لمعانيها، محباً للأدب، وراوياً للشعر كثير النقد له^(١).

ذكر المسعودي في تاريخه أنّ عبد الملك كان يحبُّ الشعر والفخر والتقريظ والمدح، وكان الشعراء يفدون عليه مادحين متملّقين، وكان يستمع ويشارك في أحاديث الشعر ونقده.

ولعلّ ذلك الجانب هو ما حفزه إلى استدعاء «الشعبي» من العراق واتّخاذه سميراً وخليلاً! وذلك لما كان يتمتّع به من ثقافة منوّعة، وحضور بديهة.

ومن أخبار عبد الملك الأدبية ما يدلُّ على سعة إحاطته بالشعر، إذ كتب إليه الحجاج مرّة يعظّم أمر قطري بن الفجاءة المازني، فكتب إليه عبد الملك «أوصيك به البكري زيداً».

فقال الحجاج لحاجبه: ناد في الناس: من أخبر الأمير بما أوصى به البكري زيداً فله عشرة آلاف دينار؟ فقال رجل

(١) المسعودي - مروج الذهب - ج ٣ - ص ٩٩.

للحاجب: أنا أخبره، فأدخله عليه، فقال الحجاج: ما قال
البكري لزيد؟ قال: قال لابن عمه زيد، والشعر لموسى بن
جابر الحنفي:

أقول لزيد لا تثرثر فإنهم
يرون المنايا دون قتلك أو قتلي
فإن عضت الحرب الضروس بنانها
فعرضة نار الحرب مثلك أو مثلي

فقال الحجاج: صدق أمير المؤمنين عرضة نار الحرب مثلي أو
مثله.

ويحدثنا كتاب الأغاني في خبرين نفهم منهما أن عبد الملك
كان يفضل الأخطل لجودة مدحه، وخلاصة هذين الخبرين: أن
الأخطل دخل على عبد الملك بن مروان فاستنشدته فقال: قد
يبس حلقي، فمُر من يسقيني. اسقوه ماءً. فقال: شراب الحمار،
وهو عندنا كثير.

قال فاسقوه لبناً، فقال: عن اللبن فطمت. قال: فاسقوه
عسلاً، قال: شراب لم يعن. قال: فتريد ماذا؟ قال: خمرأيا أمير

المؤمنين. قال: أو عهدتني أسقي الخمر؟ لا أمّ لك لولا حرمتك
بنا لفعلت بك وفعلت.

ثم ذهب الأخطل فشرّب الخمر، وعاد وقال:

خفّ القطّين فراحوا منك أو بكروا

وأزعجتهم نوى في صرفها غير

ولما انتهى الأخطل إلى قوله:

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا

لما أتاك ببطن الغوطة الخبر

قال عبد الملك: بل الله أيديني.

وبعد أن انتهى الأخطل قال له: ويحك يا أخطل، أتريد

أن أكتب إلى الآفاق، أنّك أشعر العرب؟ فقال: أكتفي
بقول أمير المؤمنين.

وقال عبد الملك: إنّ لكلّ قوم شاعراً، وإنّ شاعر بني أمية

الأخطل، وجاء في الأغاني: أنّ الحجاج بن يوسف أوفد وفداً

إلى عبد الملك وفيهم جرير، فجلس، ثمّ أمر بالأخطل فدُعي له،

فلما دخل عليه قال له: هذا سبّك يعني جريراً.

فقال جرير: أين تركت خنازير أمك؟ قال: راعية مع أعيار أمك، فأقبل جرير على عبد الملك. فقال: يا أمير المؤمنين إن رائحة الخمر تفوح منه. فقال الأخطل: صدق يا أمير المؤمنين وما اعتذاري في ذلك؟.

تُعيب الخمر وهي شراب كسرى

ويشرب قومك العجب العجيبا

فقال عبد الملك: دعوا هذا. وأنشدني يا جرير، فأنشد قصائد كلها في مدح الحجاج، فأحفظ عبد الملك، وقال له: يا جرير. إن الله لم ينصر الحجاج وإنما نصر خليفته ودينه. ثم أقبل على الأخطل فقال:

شمس العداوة حتى يُستقاد لهم

وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

فقال عبد الملك: هذه المزمرة والله لو وُضعت على زُبُر الحديد^(١) لأذابتها.

(١) القطعة الضخمة من الحديد. المفرد زُبُرُه، والجمع زُبُرٌ وزُبُرٌ.

إذن كان عبد الملك يرى في الشعر أداة مُهمّة من أدوات التربية، وتوجيه النفوس.

وقد قال لمؤدّب أولاده: أدّبهم برواية أشعار الأعشى. فإنّ لها عذوبة. قاتله الله. ما أغزر بحره، وأصلب صخره!! وقال: تعلّموا الشعر، ففيه محاسن تُبتغى، ومساوئ تتقى.

ومن الأخبار المرويّة عن عبد الملك أنّه كان يطرح أسئلة على جلسائه أو يطلب إليهم أن ينشدوه في موضوع ما، أو معنى معيّن. وكأنّه يريد أن يختبرهم، أو يقيس مدى علمهم بالشعر. يحكي أبو الفرج الأصفهاني^(١) في أغانيه، فيقول: قال عبد الملك وعنده عدة من أهل بيته وولده: ليقل كلّ واحد منكم أحسن شعراً سمع به. فذكروا لإمرئ القيس والأعشى وطرفه، فأكثروا حتى أتوا على أحسن ما قالوا. فقال عبد الملك: أشعرهم والله الذي يقول:

وذي رحمٍ قلّمت أظفار ضِغْنِه

بحلمي عنه وهو ليس له حلمٌ

(١) أبو الفرج الأصفهاني - الأغاني - ج ١٠ - ص ٣٧٧.

إذا سمته وصل القرابة سامني
قطيعتها تلك السفاهة والظلم
فأسعى لكي أبني ويهدم صالحني
وليس الذي يبني كمن شانه الهدم
فما زلت في لين له وتعطف
عليه كما تحنو على الولد الأم
لأستل منه الضغن حتى سللته

وإن كان ذا ضغن يضيق به الحلم
فقالوا: ومن قائلها يا أمير المؤمنين؟ قال: معن بن أوس المزني.
وقال يوماً لأحد جلسائه: أنشدني أكرم بيت قالتها العرب،
فقال: روح بن زنباع:

اليوم نعلم ما يجيء به
ومضى بفضل قضائه أمس
منع البقاء تقلب الشمس
وطلوعها من حيث لا تُسي

تبدو لنا بيضاء صافية
وتغيب في صفراء كالورس
فقال له: أحسنت. فأنشدني أكرم بيت وصف به رجل قومه
في الحرب، فقال: قول كعب بن مالك:
نصلُ السيوف إذا قُضِرْنَ بخطونا
قدماً ونلحقها إذا لم تلحق
قال: أحسنت^(١). فأنشدني أفضل ما قيل في الجود. قال: قول
حاتم الطائي:

ألم تر أن المال غادٍ ورائح
ويبقى من المال الأحاديث والذكر
عُيننا زماناً بالتصعلك والغنى
وكلاً سقناه بكأسيهما الدهر
فما زادنا بغياً على ذي قرابة
غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

(١) الأماي لأبي علي القالي - ج ٣ - ص ٢٩ - ٣٠.

هذه الأمثلة وغيرها كثير في كتب الأدب تطلعننا على مدى حُبِّه
للشعر والخوض في حديثه ونقده، كما تظهر سعة إطلاعه وإحاطته.

ولقد أولى خلفاء بني أمية الشعر عناية فائقة. فقربوا
الشعراء، وأغدقوا عليهم الأموال الطائلة، لما عرفوا لهم
ولشعرهم من أثر في توطيد دعائم الحكم. كما أصبحت
المجالس ميداناً خصباً لتنافس الشعراء، ورواقاً فسيحاً لنقد
الأدباء حيث أذكى الخلفاء نار المنافسة.

وقد ورد في أمالي القاضي: دخل كثيرٌ على عبد الملك فقال له:
أأنت كثيرٌ عزة؟ قال: نعم، قال: أن تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن
تراه؛ فقال: يا أمير المؤمنين. كلُّ عند محله رحب الفناء، شامخ
البناء، عالي السناء، ثم أنشأ يقول:

ترى الرجل النحيفَ فتزدريه

وفي أثوابه أسدٌ هــصور

ويعجبك الطير إذا تراه

فيخلف ظنك الرجل الطير^(١)

(١) الطير: الغلام طلع شاربه.

بغاث^(١) الطير أطولها رقاباً
ولم تطل البزاة ولا الصقور
خشاش الطير أكثرها فراخاً
وأُمُّ الصقر مقلاتٌ نذور
ضعاف الأسد أكثرها زئيراً
وأصرمها اللواتي لا تُزيّرُ
وقد عَظُم البعير بغير لبِّ
فلم يستغن بالِعِظَمِ البعير
فما عَظُم الرجال لهم بزِينِ
ولكن زينهم كرمٌ وخير

فقال عبد الملك: لله درّه ما أفصح لسانه وأضبط جنانه،
وأطول عنانه والله إني لأظنّه كما وصف نفسه^(٢).

واجتمع في مجلسه الثالث الشعري جرير والفرزدق
والأخطل، فأحضر كيساً فيه خمسمائة دينار، وقال لهم: ليقلُّ كلُّ

(١) البغاث: جمع بغثان الطيور الصغيرة التي تطير ببطء.

(٢) الأمالي: للقيلي - ج ١ - ص ٤٧.

منكم بيتاً في مدح نفسه. فأئكم غلب فله الكيس. فبدر
الفرزدق فقال:

أنا القطران والشعراء جربى
وفي القطران للجربى شفاءً
فقال الأخطل:

فإن تك زقاً زامليةً فإني
أنا الطاعون ليس له دواء
فقال جرير:

أنا الموت الذي آتى عليكم
فليس لهارب مني نجاء
فقال عبد الملك: خذ الكيس، فلعمري إنَّ الموت يأتي على
كلِّ شيءٍ^(١).

ولهذه القصة سياقٌ آخر^(٢). فقد اجتمع في مجلس عبد الملك
جرير والفرزدق فقال الفرزدق: النوار بنت مجاشع طالق ثلاثاً

(١) بدوي طبانة - دراسات في نقد الأدب - ص ١٠٥.

(٢) ابن رشيقي - العمدة - ج ١ - ص ٢٠٩.

إن لم أقل بيتاً لا يستطيع ابن المراغة أن ينقضه أبداً. فقال عبد
الملك: ما هو؟ قال:

فإني أنا الموت الذي هو واقعٌ
بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله
وما أحديا بن الأتان بوائِلِ
من الموت إنَّ الموت لا شكَّ نائله

فأطرق جرير قليلاً ثم قال: أم حرزة طالقٌ منه ثلاثاً إن
لم أكن نقضته، وزدت عليه، فقال عبد الملك: هات. فلقد طلق
أحد كما لا محاله. فأنشد:

أنا البدر يغشي نور عينيك فالتمس
بكفِّيك يا بن القين هل أنت نائله
أنا الدهرُ يفني الموت والدهر خالدٌ
فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاوله

فقال عبد الملك: فضلك - والله - يا أبا فراس، وطلق
عليك، ومن ملاحظات عبد الملك النقدية ما رآه من فساد

المعنى وقصوره عن الوفاء بالعرض في قول جرير يفخر بنفسه،
ويهجو بني الفدوكس رهط الأخطل:

هذا ابن عمي في دمشق خليفة

لوشئت ساقكم إليّ قطينا

فقال له عبد الملك: جعلتني شرطياً لك. أمّا لو قلت: لو شاء
ساقكم إليّ قطينا لسقتهم إليك عن آخرهم.

ومن ماأخذه على الشعراء في الغزل ما يرويه ابن قتيبة قال:
دخل الأقيشر على عبد الملك وعنده قوم، فتذاكروا الشعر،
وذكروا قول نصيب بن رباح وهو شاعر فحل مقدّم في النسب
والمدائح كان عبداً أسود:

أهيم بدعد ما حييتُ فإن أمتُ

فيا ويح دعدٍ من يهيم بها بعدي

فقال الأقيشر: والله لقد أساء قائل هذا الشعر. قال عبد
الملك: فكيف كنت تقول لو كنت قائله؟ قال: كنت أقول:

تحببكم نفسي حياتي فإن أمت

أوكل بدعدٍ من يهيم بها بعدي

فقال عبد الملك: والله لأنت أسوأ قولاً منه حين تُوكّل بها.
فقال الأقيشر: فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت
أقول:

تحبّكم نفسي حياتي فإن أمت
فلا صلحت دعد لذي خلّة بعدي

فقال القوم جميعاً: أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم^(١).
ولقد أورد أبو الفرج الأصفهاني هذا الخبر برواية للسيدة
سكينة بنت الحسين (عليها السلام)^(٢).

وقد أورد الأبشيهي في المستطرف خبراً مفاده أنّ الأخطل
دخل على عبد الملك بعد أن عبّ كؤوساً من الخمر:

إذا ما نديمي علّني ثمّ علّني
ثلاث زجاجات لهنّ هدير
خرجت أجرّ الذيل زهواً كأنني
عليك أمير المؤمنين أمير

(١) الشعر والشعراء - ابن قتيبة - ١ / ٣٢٤.

(٢) الأغاني - الأصفهاني - ١٦٤٠ - ص ٥٩٢٣.

ولقد كان الأخطل شاعر الدولة الرسمي حيث أعلى من
شأن الأمويين وغمز قناة معارضيهم.

وهوى الخلفاء غالباً ما يكون مع الذين يشايعونهم أو
يخلصون لهم الولاء ولا أدلّ على ذلك من تلك الموازنة التي^(١)
أقامها الخليفة بين بيتي عبد الله بن قيس الرقيّات:

خليفة الله فوق منبره
جفّت بذلك الأقلام والكتب
يعتدل التاج فوق مفرقه
على جبين كأنه الذهب

وبين قوله في مصعب بن الزبير:

إنما مصعب شهاب من الله
تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزّ ليس فيه
جبروت ولا به كبرياء

(١) الأصفهاني - الأغاني - ٥ / ١٧٢٣.

فقال عبد الملك: يا بن قيس تمدحني بالتاج كأنني من
العجم، وتمدح مصعباً بأنه شهاب من الله!!
ويُروى أنَّ هند بنت النعمان بن المنذر ترهَّبت ولبست المسوح
بعد أن غضب كسرى على أبيها وحبسه حتى مات في حبسه.
ثم أقامت في دير بنته بين الحيرة والكوفة، عُرف بدير «هند
الصغرى» وهو من أعظم ديارات الحيرة.
وقيل إنَّ هند عاشت حتى زمن الحجاج بن يوسف الثقفي ٩٥هـ
وينسب إليها أنها هي من اختارت ألوان الراية التي توحدت تحتها
قبائل العرب في ذي قار، وكانت أحسن نساء زمانها.
خطبها الحجاج وبذل مالا كثيراً، ومكث معها مدةً
طويلة ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر وجهها في
المرآة وتقول:

وما هندُ إلا مهرةٌ عربية
سليلة أفراسٍ تحلَّ لها بغل
فإن ولدت فحلاً فله درُّها
وإن ولدت بغلاً فقد جاء به البغل

فلما سمع الحجاج ذلك انصرف راجعاً، وأراد طلاقها، فبعث إليها عبد الله بن طاهر فدخل عبد الله عليها يقول لك الحجاج، إنَّ لك عليه باقي الصداق مائتي ألف درهم وهي هذه. وقد وكّني بالطلاق، فقالت له: هذه المائتا ألف درهم لك هدية بشارة خلاصي من كلب بني ثقيف الذي ما فرحت به يوماً قط وإن تفرّقنا - والله - لا أندم عليه أبداً.

ثم بلغ بعد ذلك خبرها عبد الملك بن مروان، ووُصف له حسنها وجمالها وقُدُّها واعتدالها، فأرسل يخطبها، فأرسلت كتاباً تقول فيه:

«الثناء على الله والسلام على نبيِّه محمد(ﷺ):

أمّا بعد فاعلم يا أمير المؤمنين أنّ الكلب ولغ في الإناء... فلما قرأ كتابها ضحك من قولها وكتب إليها: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهنّ بالتراب».

فلما قرأت كتابه كتبت إليه موافقة بشرط أن يقود الحجاج حملها إلى دمشق ويكون حافياً. فلما قرأ عبد الملك الرسالة وافق على ذلك، وأرسل إلى الحجاج يأمره فلم يستطع الحجاج الرفض.

وذهب إلى بيت هند بنت النعمان أخذ بزمام البعير يقوده وسار
بها فصارت تسخر منه وتضحك مع جواربها فأنشدها هذا البيت:

فإن تضحكي يا هند ربَّ ليلةٍ
تركتك فيها تسهرين نواحا
فأجابته بهذين البيتين:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت
مما فقدناه من مالٍ ومن نسب
المال مكتسب والعزّ مرتجع
إذا اشتفى المرء من داءٍ ومن عطب

ولما قربت من بلد الخليفة رمت من يدها ديناراً على الأرض،
وقالت له: يا جمّال سقط منا درهم، فنظر الحجاج إلى الأرض
فلم يرَ إلاّ ديناراً فقال لها: هذا دينار، فقالت: الحمد لله الذي
عوّضنا بالدرهم ديناراً. فخجل الحجاج من ذلك.

والخلاصة: هي أنّ عبد الملك بن مروان جمع إلى الرياسة والقيادة
العلم والثقافة والأدب؛ فكانت مجالسه واحدةً من تلك المجالس
الأدبية التي أبرزت محاسن الشعر وعيوبه وخلّفت ثروةً من الشعر
وتراثاً من النقد بروح عربية خالصة قادرة على التدوُّق والنقد.

مصادر البحث

- ١- الأغاني - لأبي الفرج الأصفهاني - بيروت - دار صعب - ١٩٨٧.
- ٢- الأمالي - لأبي علي القالي - بيروت - دار الجيل - ١٩٨٦.
- ٣- المستطرف في كل فن مستظرف - الأبشيهي - بيروت - دار الجيل ١٩٩٢.
- ٤- دراسات في نقد الأدب - بدوي طبانة - القاهرة - ٢٠٠٦.
- ٥- العمدة - ابن رشيق القيرواني - بيروت - دار الجيل - ١٩٧٢.
- ٦- مروج الذهب - المسعودي - بيروت - دار المعرفة.
- ٧- الشعر والشعراء - لابن قتيبة - بيروت - دار الكتب العلمية - ١٩٨١.

السيدة سكينة بنت الحسين

هي سكينة بنت أبي عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب
سلام الله عليهما أمُّها الرباب بنت امرئ القيس بن عدي بن
أوس الكلبي.

وُلدت سنة سبع وأربعين من الهجرة، وسميت آمنة
على اسم جدِّتها آمنة بنت وهب، ولقبَّتْها أمُّها الرباب
«بسكينة» فاشتهرت بهذا الاسم. هي الشريفة الطاهرة،
والزهرة الباسمة.

كانت سيِّدة نساء عصرها، وأحسنهنَّ أخلاقاً، ذات بيان
وفصاحة. قال عنها الإمام الحسين (عليه السلام): «وأمَّا سكينة فغالبٌ
عليها الاستغراق مع الله، فلا تصلح لرجل»^(١). وكان يحبُّها
حبًّا شديدًا، ويقول فيها، وفي أمِّها الرباب الشعر فقال:

(١) المحبر - لابن حبيب - ص ٣٩٧.

لعمرك إنني لأحبُّ داراً
تحلُّ بها سكينة والرباب
أحبُّهما وأبذل جلاً مالي
وليس للائمى فيها عتاب
ولست لهم وإن عتبوا مطيعاً
حياتي أو يغيبني التراب

وقد حضرت مع والدها أرض كربلاء، وشاهدت ما جرى على
أبيها وإخوتها وعمومتها، وشاركت النساء مصائب السبي. لكنّها
ما سُمِعَتْ شاكيةً، ولا رثيت باكيه. بل تغدو مع مشرق الشمس
ملء الإشراق والمرح. حتى لقد بدا لبعض أهلها أن يسألها ذات
مرّة: «إنك لتمزحين كثيراً، وأختك فاطمة لا تمزح؟!»

فأجابت من فورها: «لأنكم سمّيتموها باسم جدّتنا
«المؤمنّة»، وسمّيتوني باسم جدّتنا الأخرى» تعني فاطمة
الزهراء، وآمنة بنت وهب^(١). وكانت تجمع بين المرح والدعابة،
والتقوى، والتعبّد.

(١) الأغاني - ج ١٤ - ص ١٥٨.

أمّا عن زواجهما فتتعدّد الروايات، وتتضارب الأخبار، ويبدو التناقض واضحاً؛ ففي صفحة واحدة من كتاب «الأغاني» مثلاً نقرأ أربع روايات متناقضة متضاربة سردها أبو الفرج متتابعة ثم لا شيء غير هذا السرد.

فيكثر عدد أزواجهما، وتتعاقب زيجاتها. والصحيح هو أنّها خطبت من قبل ابن عمّها الحسن فقتل قبل أن يبني بها. ولما جاء مصعب بن الزبير يريد الزواج منها تزوّجته. وكان شجاعاً جواداً ذا مالٍ ومروءة حتى قيل فيه: «لو أنّ مصعب بن الزبير وجد أنّ الماء يُنقص من مروءته ما شربه»^(١).

وانتقلت سكينه إلى بيت مصعب، وكان متزوّجاً من عائشة بنت طلحة. وقد ورد في كتاب الأغاني^(٢) «أنّ سكينه كانت عفيفةً «سَلِمَةً» برزةً فاقت صاحباتها من النساء، تجالس الأجلّة من قريش، ويجتمع إليها الشعراء، وكانت ظريفةً مزّاحةً ويروى أنّها كانت أحسن الناس شعراً، وكانت تصفّ جُمَّتها

(١) سيدات بيت النبوة - د. بنت الشاطئ - ص ٦٨٧.

(٢) الأغاني - ج ٢ - ص ١٥٩ - السّلمة: الناعمة الأطراف، والمبرزه: بارزة المحاسن والتي تبرز إلى القوم يجلسون إليها ويتحدّثون.

تصنيفاً لم يُرَ أحسن منه، حتى عرف ذلك، وكانت تلك الجمّة تسمّى «السكينية».

وأما عائشة فكانت بديعة حقاً مثلاً في تناسب التكوين، واعتدال الملامح وانسجام الأعضاء كما يتصوّر الذوق العربي إذ ذاك، وقد عاتبها زوجها مصعب لأنها لا تستر وجهها فقالت: إنَّ الله تبارك وتعالى وسمني بميسم الجمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله فما كنت لأستره.

وفي كتاب الأغاني القصة التالية:

«قالت سكينة لعائشة بنت طلحة: أنا أجمل منك.

وقالت عائشة: بل أنا. فاخصمتا إلى عمر بن أبي ربيعة فقال:

أمّا أنت يا سكينة فأملح منها. وأمّا أنت يا عائشة فأجمل منها. فقالت سكينة: قضيت لي والله^(١).

تدلُّنا هذه القصة على نوعين للحسن وهما الملاححة والجمال.

ونجد في عيون الأخبار ما يؤكِّد هذا التفسير:

(١) كتاب الأغاني - ج ٤ - ص ١٦٢.

قالت امرأة خالد بن صفوان له يوماً: ما أجملك!! قال
ما تقولين ذلك وما لي عمود الجمال ولا عليّ رداؤه وبرنسه.

قالت: ما عمودُ الجمال؟ وما رداؤه؟ وما برنسه^(١)؟.

قال: أمّا عمود الجمال فطول القوام في قصر، وأمّا رداؤه
فالبياض، ولست بأبيض، وأمّا برنسه فسواد الشعر، وأنا
أصلع، ولكن لو قلت ما أحلاك! وما أملحك! لكان أولى.

«وربّ جميل الصفات على انفراد كلّ منها باردُ الطلعة غير
مليح ولا حسن ولا رائع، ولا حلو».

وظلّت سكيّنة تُسعدِ زوجها حيث استقرّ بها المقام في المدينة،
ولكن أين تذهب من قدرها المحتوم؛ فسرعان ما قُتل مصعب
على يد الحجاج بن يوسف الثَّقفي.

وكانت مكانتها الاجتماعية، وعلمها، وحبّها للأدب
والشعر، وما أنصفت به من جمالٍ وحسن ذوق، وسرعة خاطر
من الأمور التي يَسرت لها أن تكون زعيمة بين نساء الحجاز.
تُستشار وتحكم في أمور الجمال والأدب.

(١) الأغاني - ج ١٤ - ص ١٦٢ - مطبعة التقدم.

أما عن شعرها فلا نجد غير أبياتٍ معدوداتٍ قالتها ترثي
أباها الحسين (عليه السلام):

إِنَّ الْحُسَيْنَ غَدَاةَ الطِّفْلِ يَرشُقُهُ
رَيْبُ الْمُنُونِ فَمَا أَنْ يَخْطِيءَ الْحَدَقَةَ
بِكُفِّ شَرِّ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
نَسْلَ الْبَغَايَا وَجَيْشِ الْمُرِّقِ الْفَسَقَةَ
أُمَّةَ السُّوءِ هَاتُوا مَا احْتَجَّاجِكُمْ
غَدَاً، وَجُلُّكُمْ بِالسَّيْفِ قَدْ صَفَقَهُ
الْوَيْلَ حَلًّا بِكُمْ إِلَّا مَنْ لِحِقِهِ
صَيَّرْتُمُوهُ لِأَرْمَاحِ الْعِدَا دَرَقَهُ
يَا عَيْنُ فَاحْتَفِي طَوِيلَ الْحَيَاةِ دَمًا
لَا تَبْكِي وَلِدًا وَلَا أَهْلًا وَلَا رُفَقَةً^(١)

ولكنها حسبما تقول الروايات وكما يورد الأصفهاني في كتابه
«الأغاني» كانت تجالس الشعراء من وراء حجاب، أو تبعث

(١) أمالي الزجاج - ص ١٠٩ .

للشعراء الذين يجتمعون عندها جاريةً لها علّمتها الشعر،
وكانت تحكم بينهم.

وتستشهد نادرة لها طريفة نقلها «ابن خلكان» على أنّها كانت
مرهفة الحسّ الشعري دقيقة الملح لسرّ القول ودلالته على
صدق المعاناة.

يُروى أنّها وقفت على عروة بن أذينة^(١)، وكان من أعيان العلماء،
وكبار الصالحين، وله أشعار رائعة، فقالت له: أنت القائل؟:

إذا وجدتُ أوار الحب في كبدي

ذهبت نحو سقاءِ الماء أبتردُ^(٢)

هبني برُدت ببرد الماء ظاهره

فمن لنارٍ على الأحشاء تتقدُّ

فقال: نعم.

(١) أبو عامر المدني، توفي حوالي سنة ١٣٠هـ، وكان من جِلّة علماء
المدينة، ومن شعرائها المقدّمين - انظر بعض أخباره وشعره في
الأغاني (١-١٠٥).

(٢) وفيات الأعيان ١/٢٩٨ - وشذرات الذهب ١/١٥٤.

قالت: وأنت القائل؟:

قالت وأبشتها سرِّي فبحث به
قد كنت عندي تحبُّ الستر فاستتر
ألست تبصرُ من حولي فقلت لها:
غَطَّى هواك، وما أبقى على بصري

فالتفت إلى جوارِها كنَّ حولها وقالت: هنَّ حرائر إذا كان
هذا الشعر خرج من قلبٍ سليم.

وقد روى أبو الفرج الأصفهاني عن الزبيري قال: اجتمع
بالمدينة راوية جرير، وراوية كُثَيِّر، وراوية نصيب، وراوية
الأحوص، وراوية جميل، فافتخر كلُّ رجلٍ منهم بصاحبه.
وقال: صاحبي أشعر. فحكَّموا سكينه بنت الحسين (عليها السلام) لما
يعرفونه من عقلها وبصرها بالشعر. فخرجوا يتهادون حتى
استأذنوا عليها فأذنت لهم، فذكروا الذي كان من أمرهم.
فقالت لراوية جرير: أليس صاحبك الذي يقول:

طرتك صائدة القلوب وليس ذا

حينَ الزيارة فارجعي بسلام

وأَيُّ ساعةٍ أحلى من الطروق؟ قَبَّحَ اللهُ صاحبك، وقَبَّحَ
شعره، ألا قال: فادخلي بسلام. ثمَّ قالت براوية كثيرٍ: أليس
صاحبك الذي يقول:

يقرُّ بعيني ما يقرُّ بعينها

وأحسن شيءٍ ما به العين قَرَّتْ

أفحب صاحبك أن يكون أنثى؟... قَبَّحَ اللهُ صاحبك وقَبَّحَ
شعره، ثمَّ قالت لراوية جميل: أليس صاحبك الذي يقول:

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها

ولكن طلائئها لما فات من عقلي

فما أرى بصاحبك من هوى. إنَّما يطلب عقله! قَبَّحَ اللهُ
صاحبك وقَبَّحَ شعره.

ثمَّ قالت لراوية نصيب: أليس صاحبك الذي يقول:

أهيمُ بدعدٍ ما حيثُ فإنَّ أُمَّتُ

فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدي

قها بعده! قَبَّحَ اللهُ صاحبك وقَبَّحَ شعره ألا قال:

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمتُ
فلا صلحت دعدٌ لذي خلةٍ بعدي
ثم قالت لراوية الأحوص: أليس صاحبك الذي يقول:
من عاشقين تراسلا وتواعدا
ليلاً إذا نجم الثرباً حلّقا
باتا بأنعم ليلةٍ وألذّها
حتى إذا وضح الصباح تفرّقا

قال: نعم. قالت: قبّحه الله، وقبّح شعره! ألا قال: تعانقا؟^(١)
ودلالة النصّ أنّ سكينه كان لها الاحتكام إذا اشتجر الخلاف
بين رواة الشعراء وأنها كانت واعية حافظة، تعرف مأخذ
الشعراء، وتقسو في محاسبتهم على عشراتهم بلفتاتها النقدية
البارعة والدقيقة.

وبين أيدينا خبر قد يوضّح لنا السبب الذي من أجله أُلقيت
إلى السيّدة سكينه مقاليد النقد الأدبي في عصرها.

(١) الأغاني - ج ١٤ - ص ١٦٦.

نصُّ الخبر «أنشدت سكينه بنت الحسين قول الحارث بن
خالد في وصف النساء في الحجّ»:

ففرغن من سبع وقد جهدت
أحشاؤهن موائل الخُمُرِ

فسألت سكينه من بالجلس: أحسنٌ عندكم ما قال؟

قالوا: نعم. قالت: وما حُسْنُه؟! فوالله لو طافت الإبل سبعاً
لجهدت أحشاؤها^(١).

لقد غاب عنهم ما لم يغب عن السيِّدة سكينه. وفاتهم أن
ينتبهوا إلى ما انتبهت إليه بحسّها المرهف.

وفي كتاب الأغاني أيضاً: اجتمع جرير والفرزدق وكثيرٌ وجميل
ونُصيب في ضيافة سكينه بنت الحسين، فمكثوا أياماً ثمَّ أذنت
لهم، فدخلوا عليها فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع
كلامهم. ثمَّ أخرجت وصيفةً لها قدرات الأشعار والأحاديث.
فقال: أيُّكم الفرزدق؟ فقال لها: هأنذا. قالت: أنت القائل:

(١) الأغاني - ٣٢٧/٣.

همادلتاني من ثمانين قامة
كما انحطَّ بازُّ أقتم الريش كاسرُه
فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا:
أحيي فيرجى أم قتل نحاذره

قال: نعم. قالت: فما دعاك إلى إفشاء سرِّها وسرِّك، هلاً
سترت عليها وعليك؟ خذ هذه الألف والحق بأهلك.
ثم دخلت على مولاتها وخرجت برسالتها. فقالت: أيكم
جرير؟ قال: هأنذا، قالت: أنت القائل؟

طرتك صائدة القلوب وليس ذا
حين الزيارة فارجمي بسلام
تجري السَّواك على أغرِّ كأنه
بَرْدٌ تحدَّر من متون غمام
لو كان عهدك كالذي حدَّثتنا
لو صلتِ ذاك وكان غير لمام
إنِّي أوصل من أردتُ وصاله
بحبال لا صلف ولا لَوام

قال: نعم. قالت: أولاً أخذت بيدها، وقلت لها ما يقال لثلثها؟
أنت عفيف وفيك ضعف. خذ هذه الألف والحق بأهلك.
ثم دخلت إلى مولاتها وخرجت. فقالت: أيكم كثير؟ قال:
هأنذا. قالت: أنت القائل:

وأعجبني يا عزَّ منك خلائقُ
كرامٌ إذا عُدَّ الخلائقُ أربع
دُنُوكَ حتى يدفع الجاهل الصِّبا
ودفعك أسباب المنى حينَ يطمع
فو الله ما يدري كريمٌ، مُماطلٌ
أينسالك إذ باعدت أو يتصدع

قال: نعم. قالت: ملحت وشككت. خذ هذه الثلاثة آلاف
درهم والحق بأهلك.
ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: أيكم نُصيب؟
قال: هأنذا. قالت: أنت القائل:

ولولا أن يقال صبا نُصيبُ
لقلت: بنفسِي النشأُ الصغار

بنفسي كلُّ مهضوم حَشاها
إذا ظَلَمْتَ فليس لها انتصار

قال: نعم. قالت: ربَّيتنا صغاراً ومدحتنا كباراً. خذ هذه
الألف والحق بأهلك.

ودخلت على مولاتها، وخرجت فقالت: يا جميل مولاتي
تقرئك السلام وتقول: والله ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ
سمعت قولك:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً
بوادي القرى إني إذا لسعيدُ
لكلِّ حديث بينهنَّ بشاشةٌ
وكلُّ قتل عندهنَّ شهيد

جعلت حديثنا بشاشةً، وقتلانا شهداء خذ هذه الألف دينار
والحق بأهلك^(١).

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطيء» تعقيباً
على هذا النص: وليس يفوتنا ما للنص من دلالات:

(١) الأغاني - ١٤ / ١٦٦.

منها: أنّ أمراء الشعر في عصرها كانوا يجتمعون في دارها فتأذن لهم وتجلس حيث تراهم ولا يرونها، وقد اتخذت وصيفةً لها تنقل إلى كلّ منهم مختارها من شعرهم ورأيها فيه. فلقد أنكرت على الفرزدق إفشاء سرّه وسرّ صاحبه، وأثنت على جرير لعفة شعره، وإن أنكرت ضعفه وأسلوبه في مخاطبة زائريه، وأعجبتها أبياتٌ كثيرٌ في وصف صاحبه، لما لمحت فيها من دقة التعبير عن عزّة^(١).

وقد روى أبو الفرج عن أبي عبد الله الزبيري، قال: اجتمع نسوةٌ من أهل المدينة. من أهل الشرف. فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه فتشوّقن إليه وتمنّينه، فقالت سكينه بنت الحسين عليهما السلام:

أنا لكنّ به، فأرسلت إليه رسولاً وواعدته الصورين،
وسمّت له الوقت والليلة، وواعدت صاحباتها، فوافاهنّ عمر
على راحلته، فحدّثهن حتى أضاء الفجر، وحان انصرافهنّ،
فقال لهنّ: والله إنّي لمحتاج إلى زيارة قبر رسول الله (ﷺ)،

(١) د. بنت الشاطيء - تراجم سيّدات بيت النبوة - ص ٨٦٨.

والصلاة في مسجده، ولكن لا أخلط بزيارتك شيئاً، ثم
انصرف إلى مكة وقال:

قالت سكينة والدموع ذوارفٌ
منها على الخدّين والجلباب
ليت المغيريّ الذي لم أُجزه
فيما أطال تصيّدِي وطلابي
كانت تردُّ لنا المنى أيّامنا
إذ لا نلامُ على هوىّ وتصابي
خبّرتُ ما قالت فبتُّ كأننا
يُرمى الحشا بنوافذ النشاب
أسكين ما ماء الفرات وطيبه
مني على ظمياً وفقد شراب
بألذّ منك وإن نأيت وقلّما
ترعى النساء أمانة الغياب

وأجاب الأستاذ محمد علي دخيل على هذه الرواية قائلاً: إنّ
هذه الأبيات ليست في سكينة بنت الحسين (عليها السلام)، وإنما هي في

سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف وإنَّ عداوة الزبيرى صيرتها
في سكينه. ودليلنا:

قال العلامة الشنقيطي: أكثر الروايات سكينه في المتمم
وأسكين في المرخم، والرواية الصحيحة: قالت سعيدة في المتمم
وأسعيد في المرخم، وسعيد تصغير سعدى وهي بنت عبد
الرحمان بن عوف.

وسبب هذا الشعر أن سعدى المذكورة كانت جالسة في المسجد
الحرام فرأت عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت فأرسلت إليه: إذ
فرغت من طوافك فأتنا. فأتاها. فقالت: لا أراك يا ابن أبي ربيعة
سادرأ في حرم الله. أما تخاف الله ويحك إلى متى هذا السفه؟!

فقال: أي هذه دعي عنك هذا. أما سمعت ما قلت فيك؟
قالت: لا. فما قلت؟ فأنشدها الأبيات.

فقالت: أخزأك الله يا فاسق، علم الله أني ما قلت مما قلت
حرفاً ولكنك إنسان بهوت^(١).

(١) بهوت: جمع بهت: الذي يبتهت السامع بما يفترى عليه. وبهت: افترى
عليه الكذب.

هذا هو الصحيح وإنما غيرهُ المغنُون فجعلوا سَكِينَةَ مكان
سَعِيدِهِ. وَأَسَكِينِ مكانَ أُسْعِيدٍ^(١).

وقد ذُكرت هذه القصيدة بكاملها في ديوان ابن أبي
ربيعَةَ لشارحه الأستاذ محمد علي العناني المصري ولم يذكر
فيها اسم سَكِينَةَ^(٢).

وقد سئل المرحوم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء عن
هذا الاجتماع فقال: لم يذكره ابن قتيبة ولا ابن طيفور في
بلاغات النساء. مع أنها أقدم من أبي الفرج. وقال: أبو الفرج
كتابه كتاب لهُو وقد يأخذ عن الكذابين^(٣).

ثمَّ قال الأستاذ علي دخيل: كيف تعقد سَكِينَةَ مثل هذا
الاجتماع والمدينة بأسرها في مآتم الحسين (عليه السلام)؟ فالرباب أم
سَكِينَةَ وجَدت عليه وجداً شديداً، وقد خطبها أشرف قريش،
فقال: ما كنت لأتَّخذُ حَمُوءاً بعد رسول الله (ﷺ)، ولم تنزل عليه
كَمِدَةٌ حتى ماتت ولحقت بزوجه الشهيد.

(١) كتاب الأمالي - شرح أحمد بن الأمين الشنقيطي - ص ١٠٦.

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة - ص ٢٨.

(٣) أعلام النساء المؤمنات - محمد الحسنون - ص ٤٣٧.

لقد كان مجتمع الحجاز وبخاصة مكّة والمدينة - في العصر الأموي - قد فسد وأنحلَّ بسبب سياسة بني أمية التي عزلت أبناء الأشراف من الحجاز عن مهام الملك وشؤون الرئاسة.

وكان شعر عمر بن أبي ربيعة مرآة للمجتمع الحجازي في ذلك العصر^(١)، حتى ليقول الدكتور طه حسين: «إنَّ الأدباء والمؤرّخين لن يستطيعوا أن يقدّروا هذه النعمة التي أتيحت لهم حين حفظ لهم الدهر شعر عمر بن أبي ربيعة».

والذين كتبوا عن هذه السيّدة الكريمة لم يختلفوا في أنّها كانت الشخصية الأولى في المجتمع الحجازي على أيامها لما اجتمع لها من مواهب وسجايا.

عاشت سكيّنة عليها السلام سبعين عاماً وتوفيت في المدينة سنة سبع وعشرين بعد المائة للهجرة، تاركةً من بعدها كلمة الحق في كلّ ما يقال فيها، أو يروى عنها أمانةً صعبةً في حافظة الزمن الواعية، وضمير التاريخ المنصف الأمين^(٢).

(١) حديث الأربعاء - د. طه حسين - ص ٢٨٩.

(٢) تراجم سيّدات بيت النبوة - د. بنت الشاطئ - ص ٨٢٨.

مصادر الدراسة

- ١- الأصفهاني - الأغاني - بيروت - دار صعب.
- ٢- الزجّاج - الأمالي - بيروت - دار التقدّم.
- ٣- د. بنت الشاطيء - تراجم سيّدات بيت النبوة - دار الحديث - القاهرة ٢٠٠٢.
- ٤- ديوان عمر بن أبي ربيعة - بيروت - دار صعب.
- ٥- د. طه حسين - حديث الأربعاء - القاهرة ١٩٦٨ - دار المعارف.
- ٦- محمد الحسون - أعلام النساء المؤمنات - إيران - ١٤١ هـ.

مجالس هارون الرشيد

شهدت بغداد عاصمة الخلافة العباسية حركة أدبية واسعة ساعد على ازدهارها ما تحلّى به الخلفاء والأمراء والوزراء من علم وأدب وتشجيع لأهلها حتى كاد مجلس الخليفة أن يصبح منتدى أدبياً برئاسته الخليفة يستدرّ فيه قرائح الشعراء والأدباء الذين يفدون إليه من كلّ أصقاع الدولة المترامية الأطراف.

ومجلس الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣) هـ كان من أهم مجالس الخلفاء العامرة بالأدب والشعر والفكر الحافلة بأروع ما في الأدب العربي من شعر ونثر.

قال أبو منصور الثعالبي.. ولم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين كأبي نواس وأبي العتاهية والعتابي والنميري والأصمعي ومسلم بن الوليد وأبي الشيص ومروان بن أبي حفصة.

ولد هارون الرشيد ببلدة الري بطبرستان في أول المحرم
١٤٩ هـ ومات سنة ١٩٣ بعد أن قضى في الخلافة ثلاثة وعشرين
سنة. جلس الرشيد في قصر الخلد الذي بناه جدّه المنصور.

ولهذا القصر فناء واسع مليءٌ بالجواري والغلمان على مختلف
الأشكال والألوان وهو مدينة صغيرة له أجنحةٌ متعددة فهذا
جناح الخيزران أم الرشيد، وهذا جناح زبيدة زوج الرشيد ذات
الشخصية القويّة، وهذا جناح عليّة أخت الرشيد وكانت
شاعرة لها عشاقها وزوّارها ومجالس أنسها.

وهذا جناح العباسية أخت الرشيد فتاة جميلة شاعرة تحبُّ
جعفر البرمكي. وأخيراً جناح الرشيد وهو أعظم الأجنحة.

ولقد كان الرشيد مثقفاً ثقافةً عربية واسعة، علّمه الأدب المفضّل
الضبيّ والنحو الكسائي، وملاه الأَصمعي طرفاً من طرائفه الأدبية.
وكان نديمه في الغناء اسحاق الموصلي، وتدلُّنا مناقشاته الكثيرة
للعلماء والأدباء على بحرٍ واسع في العلم والأدب.

وقد روي عنه أنّه كان ينقد الشعراء والمغنين في أشعارهم
وغنائهم ويحصي غلطات هؤلاء وأولئك.

ولعلَّ أكبر ما يدلُّ على ثقافته وصيَّته المشهورة التي تقدَّم بها إلى الأحمر معلِّم ولده الأمين. إذ قال: يا أحمر. إنَّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمره قلبه. فصيرَّ يدك عليه مبسوطةً، وطاعته لك واجبةً. وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصِّره بمواقع الكلام وامنعه من الضحك إلاَّ في أوقاته.. إلخ.

وهي وصيةٌ حكيمة وضع فيها الرشيد منهج التعليم ومنهج الأخلاق. وكان الشاعر أبو العتاهية من أبرز الشعراء الذين لازموا الرشيد.

وكان يخلط قصائده بمسحة زهدية وإن لم يزهّد أبداً في عطايا الرشيد.

ونظراً لما تميَّز به أبو العتاهية من سلاسة الشعر، وسهولة النظم، وجودة الطبع، وسرعة البديهة فقد نال حظوة عند العامّة والخاصّة وقد أورد الأصفهاني عن ابن الأعرابي «اجتمعت الشعراء على باب الرشيد فأذن لهم، فدخلوا، وأنشدوا، فأنشد أبو العتاهية»:

يامن تبغي زمناً صالحاً
صلاحُ هارون صلاحُ الزمن
كلُّ لسان هو في ملكه
بالشكر في إحسانه مُرتمن

وكان الرشيد يجلس في الساحة الكبيرة للقصر التي يجتمع فيها الوفود من شعراء ومغنين ومضحكين لعلّه يخطر ببال الخليفة طلب نوع منهم وتكون له الحظوة.

ومن كبار الأدباء الذين لازموا الرشيد الكسائي والأصمعي. فقد رافقاه في حلّه وترحاله، وقد غلب الأصمعي على الرشيد غلبةً عجيبة حتى بات لا يطيق عنه صبراً، أدخله في حياته، والأصمعي بلبل البلاط الغريد يُطرب الرشيد في حال سروره، ويسرّي عنه في حال غمّه، يسوق إليه الخبر تلو الخبر، ويُنشده القصيدة بعد القصيدة، فيجيزه الرشيد جوائزهِ السنيّة.

وكانت للأصمعي ميّزات تجعل منه الجليس المثالي، فهو أتقن القوم للغة، وأعلمهم بالشعر، وأحضرهم حفظاً. قال

عنه اسحاق الموصلي «عجائب الدنيا معروفة معدودة
منها الأصمعي»^(١).

يروى النووي عن الأصمعي أنه قال: دخلت أنا واسحاق
الموصلي يوماً على الرشيد، فرأيناه ألقس^(٢) النفس، فأنشده اسحاق:

وأمره بالبخل قلت لها اصبري
فذلك شيء ما إليه سبيلُ

إلى أن قال:

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى
ورأي أمير المؤمنين جميلُ

قال: فقال له: لا تخف إن شاء الله ثم قال لله درُّ أبياتٍ تأتينا
بها. ما أشدَّ أصولها، وأحسن فصولها، وأقلَّ فضولها! وأمر له
بخمسين ألف درهم.

(١) السيوطي - الزهر - ج ٢ - ص ٢٥١ - القيرواني - زهر الآداب -
ص ١٠٨٥.

(٢) لقس لقساً نفسه: خبث و غثت فهي لقسه - تلقت نفسه في
الشيء: ضاقت.

فقال إسحاق: وصفك والله يا أمير المؤمنين لشعري أحسن
منه فعلام آخذ الجائزة؟ فضحك الرشيد وقال: اجعلوها مئة
ألف درهم. قال الأصمعي: فعلت يومئذ أن اسحاق أحذق
بصيد الدراهم مني^(١).

أمّا زميل الأصمعي ومنافسه في البلاط فهو الكسائي الذي
كان وجوده عند الرشيد سابقاً لوجود الأصمعي، لأنه اعتاد
البلاط منذ أيام المهدي. أدب الرشيد ثم أدب ابنه الأمين. وكان
أثيراً عند الخليفة، أخرجته من طبقة المؤدّبين إلى طبقة الجلّساء
والمؤنسين والكسائي كان من أعلم الناس بالنحو.

يورد ابن الأنباري والخطيب البغدادي خبر اتصاله
بالمهدي. فقد كان عند المهدي مؤدّب يؤدّب الرشيد. فدعاه
المهدي يوماً وهو يستاك فقال له: كيف تأمر من السواك؟
فقال: استك يا أمير المؤمنين. فقال المهدي: إنّنا لله وإنّا إليه
راجعون. ثمّ قال: التمسوا لنا من هو أفهم من هذا الرجل.
فقالوا: رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة.

(١) النويري - نهاية الإرب - ج ٥ - ص ٧.

فجيءَ به. فساعة دخل عليه قال: يا علي بن حمزة لبيك يا أمير المؤمنين. قال: كيف تأمر من السواك؟ فقال: سكّ فاك. فقال: أحسنت وأصبت وأمر له بعشرة آلاف درهم^(١).

وهناك من هذه الطبقة المفضّل الضيّبي العلامة راوية الآداب والأخبار وأيام العرب. فقد كان أوثق من روى الشعر من الكوفيين وكان الرشيد يستقبل في مجلسه أعلام الكلمة من كلّ فن وعلم فمن رواد مجلسه أبو نواس ودعبل ومسلم ابن الوليد والعباس بن الأحنف وإبراهيم الموصلي وابنه اسحاق. ويظهر الرشيد في بعض المواقف ناقداً مشجعاً ومقوّمًا اعوجاج بعض الأشعار.

فقد دخل ابراهيم الموصلي على الرشيد لما نزل في طريقه إلى طوس بشبداز. فجلس يشرب عنده. فغناه فقال:

رَأَيْتَ الدِّينَ وَالدُّنْيَا

مَقِيمِينَ بِشَبْدَازِ

أَقَامَ بَيْنَ حَجَّاجِ

وَعَاذَ أَيُّهَا غَازِ

(١) نزهة الأنبياء في طبقة الأدباء - ص ٧١.

فأمر له الرشيد بألف دينار. وقال له يا ابراهيم: صنعتك فيه
أحسن من شعرك. فخجل وقال: يا سيدي شغل خاطري
الغناء فقلت: لوقتي ما حضرني. فضحك الرشيد من قلبه.
وقال: صدقت^(١).

وكان أبو العتاهية لا يفارق الرشيد. فلما قدم الرشيد الرقة
لبس أبو العتاهية الصوف وترهّد، وترك حضور المنادمة
والقول في الغزل. فأمر الرشيد بحبسه. فكتب إليه:

أنا اليوم لي والحمد لله أشهر
يروحُ عليّ الهَمّ منكم ويُبكر
فلما قرأ الرشيد ما كتبه قال: قولوا له: لا بأس عليك.
فكتب إليه:

أرقت وطار عن عيني النعاس
ونام السامرون ولم يواسوا
أمين الله أمنك خير أمن
عليك من التُّقى فيه لباس

(١) الأصبهاني - الأغاني - ج ٥ - ص ١٦٩.

أَمِينُ اللَّهِ إِنَّ الْحَبْسَ بِأَسْ
وَقَدْ أَرْسَلْتُ لَيْسَ عَلَيْكَ بِأَسْ

فَأَمْرٍ بِإِطْلَاقِهِ^(١).

وقيل بعث الرشيد بالمجرشي إلى ناحية الموصل فجبى له مالا عظيماً من بقايا الخراج، فأمر الرشيد بصرف المال أجمع إلى بعض جواريه، فاستعظم الناس ذلك. وحين رأى خالد بن الزهر أبا العتاهية وقد أخذه شبه الجنون، فقال له: ويحك مالك. فقال: سبحان الله أي دفع هذا المال الجليل إلى امرأة ولا يتعلّق كفي بشيء منه. ثم دخل إلى الرشيد بعد أيام فأنشده.

اللَّهُ هَوَّنَ عِنْدَكَ الدُّنْيَا وَبَغَّضَهَا إِلَيْكَ

فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تَصَغُرَ كُلُّ شَيْءٍ فِي يَدَيْكَ

مَا هَانَتْ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ كَمَا هَانَتْ عَلَيْكَ

فقال له: الفضل بن الربيع يا أمير المؤمنين ما مُدحت الخلفاء بأصدق

من هذا المدح. فقال: يا فضل أعطه عشرين ألف درهم^(٢).

(١) الأصبهاني - الأغاني - ج ٣ - ص ١٥٨.

(٢) الأصبهاني - الأغاني - ج ٣ - ص ١٥٩.

ولعلّ الموقف الذي يبرز فيه الرشيد ناقداً ونحوياً
ومصححاً^(١) ما كان من دخول أبي ذؤيب العماني الراجز عليه.
فأنشده أرجوزةً يصف فيها فرساً شبه أذنيه فيها بقلم محرّف:

كَأَنَّ أَذْنِيه إِذَا تَشَوَّفَا
قَادِمَةً أَوْ قَلَمًا مَحْرَفَا

فقال الرشيد: دع كأنّ، وقل تخال أذنيه حتى يستوي
الإعراب ويصحّ الخطأ الذي وقع فيه الشاعر حيث نصب
خبر كأنّ.

ومن الشعراء الفحول الذين لزموا البلاط منصور النميري
وابن ذؤيب العماني ومروان بن أبي حفصة؛ فقد ذكرهم الطبري
في الحاضرين عند حديثه عن مجلس الاستماع إلى الشاعر
الباهلي. والنميري لزم الرشيد في تنقله وأنشد في مدحه قصائد
رائعة تركّز حقّ العباسيين في الخلافة. وهناك مسلم بن الوليد
الذي أعجب به الرشيد؛ فحين دخل إليه تباط معه الحديث،
ولقّبهُ بأخر بيت في قصيدته التي يقول فيها:

(١) الأصبهاني - الأغاني - ج ٥ - ص ١٦٩.

هل العيش إلا أن تروح مع الصِّبا
وتغدو صريع الكأس والأعين النُّجَلِ

فقال له: أنت صريع الغواني. ويُقال: إنَّ الرشيد كتب شعره
بهاء الذهب^(١).

ومن شعراء البلاط العباسي بن الأحنف الذي كان مشهوراً
بخفة ظله وحسن معشره، وانصرافه إلى الغزل وأنفته من
المدح. وقد أحبه الرشيد، فلزم بلاطه.

وقد روى الخطيب البغدادي أنَّ الرشيد عندما توفيت
محظيته هيلانة وجد عليها جداً شديداً، وأمر العباس بن
الأحنف أن يرثيها. فرثاها بقصيدة منها:
أَبْغِي صَباً مَنْ بَعْدَ هَيْلَانَةَ؟ إِذَا

أَرَانِي مَلْغِي مِنْ وِفَاءِ الْحَبَائِبِ^(٢)

(١) طبقات الشعراء - ص ٢٣٩.

(٢) ديوان العباس بن الأحنف - ص ٣٧.

ويروى أنّ العباس دخل على هارون الرشيد، فقال له: أنشدني
أرق بيت قالته العرب. فقال: أكثر الناس في بيت جميل:

ألا ليتني أعمى أصمُّ تقودني
بشينةٌ لا يخفى عليّ كلامها

فقال له هارون: أنت والله أرقُّ منه حيث تقول:

طاف الهوى في عباد الله كلهم
حتى إذا مرَّ بي من بينهم وقفا

فقال العباس: أنت والله يا أمير المؤمنين أرقُّ قولاً مني ومنه
حيث تقول:

أما يكفيك أنّك تملكيني
وأنّ الناس كلهم عبيدي
وأنّك لو قطعت يدي ورجلي
لقلت من الهوى أحسنت زيدي!

وهناك مساجلات شعرية بين الخليفة وجواربه. فقد ذكر
المسعودي ذلك المجلس الذي حضره البرامكة، واسحاق

الموصللي، وخالد بن يزيد الكاتب. وبينما الجميع يتذكرون أبياتاً
لخالد غنّت بها جارية من البلاط أقبلت وصيفة ومعها تفاحة
مكتوب عليها بغالية:

سرورك أهلك عن مو عدي
فصيرت تفاحتي تذكره
فأخذ الرشيد تفاحةً أخرى كتب عليها:^(١)
تغاضيت وعدي ولم أنسه
فتفاحتي هذه معذره

قال ابن الأثري لما حُبر أبو نواس بأن الخليفة يجمع بين
الأصمعي وأبي عبيدة قال: أمّا أبو عبيدة فعالم لا يزال مع أسفاره
يقرأها والأصمعي بمنزلة بلبل في قفص يسمع من أنغامه لحوناً
ويُري كلّ وقت من ملحه فنوناً^(٢). وكانت لغة الحديث في البلاط
الأدبي لغة فصيحة خالية من اللحن والشوائب، قال أبو نواس:
لقد كنت يوماً بداره «أي الرشيد» وعلمت من بعض خدمه أنه

(١) مروج الذهب - المسعودي - ج ٣ - ص ٢٨٥.

(٢) نزهة الأنباء - ص ٢٠٩.

دخل مقصورةً على جارية على غفلةٍ منها، فوجدها تغتسل وقت
الظهر فلما رآته تجلّت بشعرها فأعجبه ذلك منها، فلما دخل عليها
أبو نواس أنشده:

نضت عنها القميص لصبّ ماءٍ
فورّد وجهها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرّت
بمعتدلٍ أرقّ من الهواء
ومدّت راحةً كالماء منها
إلى ماءٍ معدّ في إناء
فلما أن قضت وطراً وهمت
على عجلٍ إلى أخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على التداني
فأسبلت الظلام على الضياء
وغاب الصبح منها تحت ليلٍ
وظلّ الماء يقطر فوق ماءٍ

يقول ابن منظور: حصل أبو نواس على مكانته عند الرشيد،
بأنه إذا بكر إليه سأل خواص أهل بيته عما يكون في نفسه، أو
يكون جرى له في ذلك الوقت ثم ينشده أشعاراً لطيفة. في
مطابقة ذلك فيطيب بها نفساً.

ومن المعروف عن أبي نواس كغيره من شعراء الأئس والمنادمة
أنه كان على روابط ودّ وصداقة ومنادمة مع موالي الرشيد، أو
جهاز الاستعلامات السري الذي يوصل إليه تقارير عن حياته
الخاصة؛ فكان إذا دخل عليه أصاب الهدف في الصميم.

ومن طريف المناظرات التي كانت تدور في بلاط الرشيد تلك
المناظرة التي كانت بين الكسائي واليزيدي. وكلاهما لغوي نحوي.
وكلاهما مؤدّب لأولاد الرشيد تجمع بينهما عداوة المهنة.

اليزيدي يتندر ويسأل صاحبه عن رأيه في قول الشاعر:

ما رأينا خرباً تفرُّ

عنه البيض صقر

لا يكون العيرُ مُهراً

لا يكون المهرُ مُهراً

فقال الكسائي: يجب أن يكون مهر الأخير منصوباً على أنه
خبر كان ففي هذا البيت على التقرير إقواء^(١).

ولا شك أن اليزيدي أخذ الكسائي على حين غرة؛ فلو أنه
عرض البيتين كتابةً مضبوطين بالحركات وبعلامات الفصل
والوقف لما وقع الكسائي في الفخ! ولكن المناظرة
سماعية شفوية. وهذه الهفوة من الكسائي كانت موضوع
انتظار اليزيدي الذي قال: إن الشعر صواب لأن الكلام قد
تم عند قوله: «لا يكون» الثانية وهي مؤكده للأولى ثم
استأنف الكلام فقال: المهرُ مهر. وضرب بقلنسوته الأرض
قائلاً: «أنا أبو محمد»^(٢).

(١) الإقواء هو اختلاف الإعراب في القوافي وذلك أن تكون قافية
مرفوعة وأخرى مخفوضة كقول النابغة:

قالت بنو عامر خالوا بني يا بؤس للجهل ضراراً لأقوام

وقال فيها:

تبدو كواكبه والشمس طالعةٌ لا النورُ نورٌ ولا الإظلامُ إظلامٌ

(٢) ابن خلكان - وفيات الأعيان - ج ٣ - ص ٢٠٠.

ودخل سهل بن هارون على الرشيد، وهو يضاحك المأمون فقال: اللهم زدّه من الخيرات، وأبسط له من البركات، حتى يكون في كلّ يوم من أيامه مُرَبِّياً^(١) على أمسه، مقصراً عن غده. فقال له الرشيد: يا سهل، من روى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحه وأوضحه، إذاً أراد أن يقول لم يعجزه القول.

فقال سهل بن هارون: يا أمير المؤمنين؛ ما ظننت أن أحداً تقدّمني إلى هذا المعنى فقال: بل أعشى همدان حيث يقول:

رَأَيْتُكَ أَمْسٍ خَيْرِ بَنِي لَوْيٍ
وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمْسٍ
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفًا
كَذَاكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبْدِ شَمْسٍ

ويروى عن الرشيد أنه كان يعجبه غناء الملاحين في الحَرَاقَاتِ (السفن) إذا ركبها، وكان يتأدّى بفساد كلامهم

(١) اسم فاعل من أربى إذا زاد.

ولحنهم. فقال: قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون به.

ف قيل له: ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية وهو في الحبس. قال أبو العتاهية: فوجه إليّ الرشيد كلّ شعر لأسمعه منهم ولم يأمر بإطلاقي، فغاظني ذلك، وقلت: والله لأقولن شعراً يحزنه ولا يُسرُّ به فعملت شعراً ودفعته إلى من يغني من الحرّاقين:

خانك الطرف الطمّوح

أيُّها القلب الجمّوحُ

لدواعي الخير والشرِّ

دنوّ ونزّوح

هل لطلوبٍ بذنبٍ

نوبّةٌ منه نصّوح

سيصير المرء يوماً

جسداً ما فيه روحُ

بين عيني كلّ حيّ

علّم الموت يلوّحُ

كُنَّا فِي غَفْلَةٍ وَالْمَوْتُ

يَغْدُو وَيُروح

نَحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مَسْكِين

إِنْ كُنْتَ تَنُوح

لَسْتَ بِالْبَاقِي وَلَوْ عَمَّر

تَ مَا عَمَّر نُوح

فلما سمع الرشيد جعل يبكي ويتعجب، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعاً في وقت موعظة، وأشدّهم عُنفاً في وقت الغضب. ووصل سعيد بن سلم إلى الرشيد شاعراً باهلياً، فأنشده قصيدةً حسنةً فاسترا به الرشيد، وقال: أسمعك مستحسناً، وأنكرك متّهماً؛ فإن كنت صاحب هذا الشعر فقل في هذين، وأشار إلى الأمين والمأمون وكانا جالسين.

فقال: يا أمير المؤمنين، حملتني على غير الجدّد: هيبة الخلافة ووحشة الغربة، وروعة المفاجأة، وجلالة المقام، وصعوبة البديهة وشرود القوافي على غير الرويّة. فليّمهني أمير المؤمنين حتى يتألف نافر القول.

فقال الرشيد: لا عليك ألا تقول، قد جعلت اعتذارك
عَوَضَ امتحانك، فقال: يا أمير المؤمنين: نَفَسْتَ الخناق،
وسَهَّلتَ ميدان السباق.

ثم قال:

بِنَيْتِ بَعْدَ اللَّهِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
ذُرَى قَبَّةِ الْإِسْلَامِ فَاخْضَرَّ عَوْدُهَا
هَمَّا طَبَاهَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا
وَأَنْتِ - أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - عَمُودُهَا

فقال الرشيد: وأنت بارك الله فيك. سل ولا تكن مسألتك
دون إحسانك، فقال: الهنيدة يا أمير المؤمنين^(١)! فأمر له بها،
وبخلع نفسه^(٢).

وروى الأصمعي أنه دخل على هارون أمير المؤمنين، وبين
يديه جارية حسناء عليها لمة جعدة، وذؤابة تضرب الحِقْوَ منها،

(١) الهنيدة: اسم للماثة من الإبل.

(٢) القيرواني - زهر الآداب وثمر الألباب - ص ١٠٨٩.

وهلال بين عينيها مكتوب عليه بالمدَّهَب: هذا ما عمَل في طراز
الله! فقال: يا أصمعي، صفها. فأنشأت أقول:

كنائِةُ الأطرافِ سعديَّةُ الحشا

هلالِيةُ العينين طائِيةُ الفم

لها حكم لقمان، وصورة يوسُفِ

ونعمةُ داوِدِ، وعِفَّةُ مريم

فقال: أحسنت والله يا أصمعي؛ فهل عرفت اسمها؟ قلت:
لا يا أمير المؤمنين. فقال: اسمها دنيا. فأطرقت ساعة ثم قلت:

إنَّ دنيا هي التي

تملك القلب قاهرة

ظلموها شطر اسمها

فهي دنيا وآخره

قال الأصمعي: فأمر لي بعشرة آلاف درهم.

ودخل اسحاق بن ابراهيم الموصلي على هارون الرشيد،
وعنده جارية، وقد أهديت إليه، ماجنة شاعرة أدبية، وبين يديه

طبق فيه ورد، فقال له: ما ترى حسن هذا الورد ونضرة لونه؟
قال اسحاق: بك والله حُسن ذلك يا أمير المؤمنين. قال: قل بيتاً
يشبهه. فأطرق يشبهه. فأطرق الموصلِي ساعة ثم قال:

كأنه خدُّ موموقٍ يقبُّله

فمُ الحبيب وقد أبدى به خجلاً^(١)

فاعترضته الجارية فقالت:

كأنه لون خدي حين تدفني

كفُّ الرشيد لأمر يوجب الغُسلَا

فقال الرشيد: قم يا اسحاق، فقد حرَّكتني هذه الفاسقة!

وقال الأصمعي: دخلت ذات عشية إلى هارون الرشيد،
وهو متململ على فراشه، فقال لي: يا ابن قريب، لقد منَّ الله
علينا في هذه العشية. لقد اعتلجت في قلبي هموم فبت ليلتك
عندي، واشغلتني عما يتعاورني من الذكر وطوارق الفكر
فذكرت أبياتاً أنشد فيها أبو المفوَّه الخفاجي لبعضهم:

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج ٢ - ص ٩٨.

ثوى حبُّ ليلٍ في فؤادي فأصبحت
علائقه بين الحشا والأضالع
رمتني بنبل الحب منها وغالني
مع الشوق أني لست منها بطامع

وهي قصيدة مؤلفة من اثنين وعشرين بيتاً.

قال الأصمعي: فلما فرغت منها قبّلني وقال: أعدّها عليّ
عشر مرات فحفظها، وأنشدها لا يقدم منها حرفاً ولا يؤخر.
فقال الرشيد: قد وهبت لك الخالصة ضيعتي بالبصرة.
وريعها خمسون ألف درهم: فقمّت لأنصرف. فقال لي:
اقعد لعلنا نتشاغل بعمل شيء من الشعر. فأخذ قرطاساً
وكتب فيه:

بيد المكارم تقطع الأسبابُ.

ثم رمى بالقرطاس إليّ. فرآني متبلّداً. فقال: ليدخل من
وجدتم من الشعراء على الباب. فوجد منهم على الباب اثنان
فقال: اعرض عليهما المصراع يجيزاه. فأخذه، فتبلّداً. فضاق
صدر هارون. فقال: لقد أفنيتما الليلة في تنمّة مصراع انقطعت

عنه وجوه الإبداع. أفأجيزه لكم. قلنا: نعم يا أمير المؤمنين. فقال:

بيد المكارم تقطع الأسبابُ
ولكلّ منع أو عطاء بابُ
وقام معجباً بما قال.

وحكى الأصمعي قال: حضرت مجلس الرشيد وعنده مسلم بن الوليد إذ دخل عليه أبو نواس فقال له: ما أحدثت بعدنا يا أبا نواس؟ فقال: يا أمير المؤمنين ولو في الخمر، وقال: قاتلك الله ولو في الخمر. فأنشده:

يا شقيق النفس من حكم
نمت عن ليلى ولم أنم^(١)
فاسقني الخمر التي اختمرت
بخمار الشيب في الرّحم
ورعّتها بالمزاج يدُ
خُلقت للكأس والقلم

(١) ديوان أبي نواس - دار صادر - بيروت - ص ٥٣٧.

حتى أتى على آخرها. فقال له الرشيد: أحسنت والله. اعطيه يا
غلام عشرة آلاف درهم فلما خرجنا من عند الرشيد قال لي: مسلم
بن الوليد: ألم تر يا أبا سعد إلى الحسن بن هانئ كيف سرق شعري،
وأخذ به مالاً وخلعاً؟ فقال له: وأي معنى سرق؟ قال: قوله:

فتمشّت في مفاصلهم
كتمشي البرء في السقم
فقلت وأي شيء قلت أنت؟ قال: قلت:

تجري محبتها في قلب عاشقها
مجرى السلامة في أعضاء منتكس
فقلت له: فمن سرقت أنت هذا المعنى؟ فقال: لا أعلم أي
سرقة من أحد. فقلت: بلى. من عمر بن أبي ربيعة حيث يقول:

لقد دبّ الهوى لك في فؤادي
ديب دم الحياة إلى العروق^(١)

وروي عن الفرّاء أن سيويه قدم على البرامكة فعزم بحي
البرمكي على الجمع بينه وبين الكسائي. فحضر الكسائي فأقبل

(١) العباس الموسوي - نزهة الجليس - ج ١ - ص ٢٣٤.

على سيبويه. فقال: تسألني أو أسألك؟ فقال: لا بل سألني أنت. فأقبل عليه الكسائي فقال له: ما تقول، أو كيف تقول: قد كنت أظن أن العقرب أشدُّ لسعةً من الزنبور فإذا هو هي أو فإذا هو إياها؟ فقال سيبويه: فإذا هو هي. ولا يجوز النصب. فقال له الكسائي: لحتت. ثم سأله عن مسائل من هذا النوع.

خرجت فإذا عبد الله القائم، أو القائم؟ فقال سيبويه في كل ذلك بالرفع دون النصب. فقال الكسائي: ليس هذا الكلام كلام العرب، العرب ترفع في ذلك كله وتنصب. فدفع سيبويه قوله: فقال يحيى بن خالد قد اختلفتما وأنتما رئيسا ببلديكما، فمن ذا يحكم بينكما؟.

فقال الكسائي: هذه العرب ببابك؛ قد جمعتهم من كل أوب، ووفدت عليك من كل صقع. وهم فصحاء الناس، وقد قنع بهم أهل المضرين، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم. فيحضرون ويسألون. فقال يحيى: لقد أنصفت. وأمر بإحضارهم فدخلوا، وفيهم أبو فقعس وأبو زياد وأبو الجراح. فسئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه، فتابعوا الكسائي، وقالوا بقوله. قال: فأقبل يحيى على سيبويه

فقال له: قد تسمع أيها الرجل. قال: فاستكان سيبويه. فقال الكسائي: أصلح الله الوزير إنّه وفد عليك مؤملاً، فإن رأيت ألاّ تردّه خائباً. فأمر له بعشرة آلاف درهم، فخرج وصيّراً وجهه إلى فارس فأقام هناك حتى مات، ولم يعد إلى البصرة.

قال أبو العباس: وإنّما أدخل العماد في قوله: فإذا هو إيها لأنّ «فإذا» مفاجأة أي فوجدته ورأيته. ووجدت ورأيت تنصب شيئين. ويكون معه خبر. فلذلك نصبت العرب^(١).

هذه صورة عن مجالس هارون الرشيد الذي ألف في الموسوعات التي تحدّثت عن مجالسه العامّة والخاصّة والرسمية والأدبية.

وهي أشهر المجالس التي كانت عامرة بالعلم والأدب والفكر وحافلة بأروع ما في الأدب العربي من شعر ونثر. الرشيد الذي يُطلُّ علينا عبر الأجيال هو الرشيد الذي رسمته أقلام أدبائه وقصائد شعرائه.

إنّ خلوده ليس خلوداً للإنسان بقدر ما هو خلود النتاج الأدبي والفني الذي حضنه ودخل به عالم البقاء.

(١) عبد الرحمن الزجاجي - مجالس العلماء - ص ١٠.

مصادر الدراسة

- ١ - الحركة الأدبية في مجالس هارون الرشيد - محمود بن سعود بن عبد العزيز الحلیم.
- ٢ - مجالس الأدب في قصور الخلفاء العباسيين - مصطفى البشير قط - دار البارودي العلمية.
- ٣ - مجالس العلماء - أبو القاسم عبد الرحمن الزجاجي - تحقيق عبد السلام هارون - دار الرفاعي - الرياض ١٩٨٣.
- ٤ - نزهة الجليس ومنية الأديب النفيس - العباس الموسوي - مكتبة الحيدرية - النجف.
- ٥ - ديوان أبي نواس - دار صادر - بيروت.
- ٦ - زهر الآداب وثمر الألباب - القيرواني - دار الجبل - بيروت ١٩٧٢.
- ٧ - الأغاني - الأصفهاني - بيروت - دار صعب - ١٩٨٧.
- ٨ - ديوان العباس بن الأحنف - دار صادر - بيروت.
- ٩ - مروج الذهب - المسعودي - منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت لبنان .
- ١٠ - وفيات الأعيان - ابن خلکان - مصر - ١٣١٠هـ.
- ١١ - العقد الفريد - ابن عبد ربه - دار الفكر.
- ١٢ - طبقات الشعراء - ابن قتيبة الدينوري - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٩٨١.

مجالس المأمون

بلغت الدولة العباسية قمّة الازدهار السياسي والفكري وبوجه أخص أيام هارون الرشيد وابنه المأمون اللذين ألقيا على هذا العصر هالة مشرقة من النور حتى اعتُبر أزهى عصور التاريخ العربي الإسلامي.

ولقد كان المأمون محباً للعلم والأدب، يجالس الشعراء، ويشجّعهم. وكان تشجيعه للعلوم والفنون والآداب والفلسفة أثر عظيم في رقيّها وتقدّمها وانبعثت حركة فكرية عظيمة. حتى قيل: لم يكن لبغداد نظير في جلاله قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وعظم أقطارها، وكثرة دورها...

وكان البلاط الملكي وما فيه من دور يبلغ ثلث المدينة المدوّرة. وأهمُّ ما فيه المجلس المفروش بالطنافس والمجهّز

بالسُّجف والطَّرَاحات مما لم يكن في الشرق أبدع منه. وقد أصبح القصر مركزاً لمختلف الثقافات، وضرّوب الفنون. ولقد أكثرت كتب الأدب والتاريخ من ذكر أخبار هذه المجالس، ورسمت لها صوراً واضحة تدلُّ على ثقافة أولي الأمر «الخلفاء» ورعايتهم للعلم والمعرفة وفيما يلي نماذج من هذه المجالس:

ذكر ابن طيفور أنّ المأمون كان في مجلس من مجالسه وعنده جماعة من قريش فسألهم: أيُّكم يحفظ أبيات عبد الله بن الزبعرى التي يعتذر فيها إلى رسول الله (ﷺ)؟ فقال مصعب بن عبد الله الزبيري: أنا يا أمير المؤمنين. قال: فأنشدنا. فأنشد:

منع الرقّاد بلا بلُّ وهموم
والليل معتلج الرواق بهيم
مما أتاني أنّ أحمد لأمني
فبتُّ كأنني محموم
إنّي لمعتذرٌ إليك من الذي
أنشأت إذ أنا في البلاد أهيم

فاليوم آنسَ بالنبي محمد
قلبي ومخطئ هذه محروم
فاغفر فداك والديي كلاهما
ذنبي إليك فإنك راحم مرحوم

فأمر المأمون لمصعب بثلاثين ألف درهم، وقال: ليكن
القرشيُّ مثلك. وقد حفلت مجالسه بأفاضل العلماء والأدباء.
قال ابن الإعرابي: قال لي المأمون: خبرني عن قول هند بنت
عتبه "نحن بنات طارق نمشي على النار".

من هو طارق؟ فنظرت في نسبها فلم أجده فقلت:
لا أعرف. قال: إنها أرادت النجم. انتسبت إليه لحسنها. ثم دحا
إليَّ بعنبره بعثها بخمسة آلاف درهم.

المأمون وثامة بن الأشرس النميري:

ثامة مناظر قوي، وأديب بارع كان يتردد على قصور
الخلفاء ويزين مجالسهم بالكلام العذب في الأدب، ومسائل
الاعتزال. وقد ملئت كتب الأدب بأحاديثه الممتعة
ونوادره الطريفة.

علا شأنه في أيام المأمون فكان عنده فوق الوزراء. وقد أراد
المأمون أن يكون وزيراً له بعد مقتل الفضل بن سهل فأبى. ونصح
المأمون بيحيى بن أكثم الذي ناظره ثامه بين يدي المأمون.

فقال ثامه: ليس تخلو أفعال العباد من أمور تكون كلها لله ليس
للعباد فيها صنع، أو يكون بعضها من العباد، وبعضها من الله.

فإذا زعمت أن ليس للعباد فيها صنع كفرت، ونسبت إلى الله
كل فعل قبيح وإن زعمت أنها من الله ومن العباد كفرت لأنك
جعلت الخلق شركاء الله في فعل الفواحش والكفر. وإن
زعمت أنها للعباد ليس لله فيها صنع صرت إلى ما أقوله.

وكان المأمون في علمه وثقافته لا يقف عند حد الثقافة
الذاتية وإنما وجه حرصه إلى أن يثير في نفوس أصحابه كوامن
الرغبة في التعمق والدرس، وإدراك حقائق الأشياء. فكان يفتح
لجلسائه أبواباً من القول ما كانت لتخطر لهم ببال، وبهذا
استحق المأمون لقب «حكيم بني العباس».

ويروى أن أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي^(١)، وهو أحد
الشعراء الشجعان من قادة جيش المأمون - دخل على المأمون

(١) ابن خلكان - وفيات الأعيان - ج ١ - ص ٤٢٣.

فقال له: يا قاسم ما أحسن أبياتك في صفة الحرب، ولذا ذاتك
بها، وزهدك في المغنّيات!

قال: يا أمير المؤمنين، أيّ أبيات هي؟ قال: قولك:

لِشَلِّ السِّیُوفِ وَشَقِّ الصَّفُوفِ
وَنَفْضِ الشَّرَابِ وَضَرْبِ الْقُلُوبِ

قال: ثمّ ماذا يا قاسم؟ قال:

وَلِبَسِ الْعِجَاجَةَ وَالْخَافِقَاتِ
تُرَيْكِ الْمَنَابِرِ وَالرُّوسِ الْأَسْلُ
أَنَا بِنَ الْحَسَامِ وَتَرْبِ الصَّفَّاحِ
وَرَيْبِ الْمَنُونِ، وَقَرْبِ الْأَجَلِ

ثمّ قال: يا أمير المؤمنين هذه لذتي مع أعدائك، وقوّتي مع
أوليائك ولئن استلذت مستلذ شيئاً من المعاقرة ملت إلى
المصادمه والمحاربه.

قال: يا قاسم إذا كان هذا النمط من الأشعار شأنك، واللذّه
لذتك فماذا تركت للوسنان مما خلّفت، وأظهرت له من قليل

ما سرت؟ قال: يا أمير المؤمنين، وأبي أشعاري؟ قال:
حيث تقول:

أيها الراقد المورق عيني
نم هنيئاً لك الرقاد اللذيذ
علم الله أن قلبي مَّما
قد جنت مقلتك فيه وقيذ^(١)

قال: يا أمير المؤمنين سهوة بعد سهرة غلبت، وذلك قسمٌ
متقدّمٌ وهذا ظنٌ متأخّر. قال: يا قاسم. ما أحسن ما قال
صاحب هذين البيتين!!

أذمُّ لك الأيام في ذاتِ بيننا
وما لليال في الذي بيننا عذرٌ
إذا لم يكن بين المحبِّين زورةٌ
سوى ذكر شيءٍ قد مضى دَرَسَ الفكر

(١) الوقيذ: المريض المشرف على الموت.

قال أبو دلف: ما أحسن ما قال، يا أمير المؤمنين، هذا السيّد الهاشمي والملك العباسي! قال: وكيف أدتكَ الفطنة، ولم تداخلك الظنّة حتى تحقّقت أنّي صاحبها^(١).

قال: يا أمير المؤمنين إنّما الشعر بساط صوف فمن خلط الشعر بنقي الصوف ظهر رونقه عند التصنيف ونار ضوئه عند التأليف.

المأمون وأبو العتاهية:

قال أبو العتاهية: وجّه إليّ المأمون يوماً حضرت إليه فألقيته مطرقاً مفكراً مغموماً فأحجمت عن الدنو إليه وهو على تلك الحال. فرفع رأسه وأشار بيده: أن ادن، فدنوت، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال: يا اسماعيل شأن النفس الملل وحبّ الاستطراف، والأنس بالوحدة، كما نأنس بالألفة.

قلت أجل يا أمير المؤمنين ولي في هذا بيت شعر. قال: ما هو؟ قلت:

لا يُصلح النفس إذ كانت مُصَرَّفَةً
إلاّ التَّنْقُلُ من حال إلى حال

(١) المسعودي - مروج الذهب - ج ٤ - ص ١٢.

قال أحسنت. زدني، فقلت لا أقدر على ذلك. وأنسته بقية
يومه وأمر لي بهال فانصرفت.

اتصل يحيى بن أكثم قاضي البصرة بالمأمون ونادمه ورخص
له في أمور كثيرة. فقال له يوماً: يا أبا محمد، من الذي يقول:

قاضي يرى الحد في الزناء ولا

يرى على من يلوط من باس

قال: ذلك ابن أبي نعيم يا أمير المؤمنين وهو القائل:

أميرنا يرتشي وحاكمننا

يلوط والرأس شرُّ ما راس

قاضي يرى الحد في الزناء ولا

يرى على من يلوط من باس

ما أحسب الجور ينقضي وعلى الـ

أمة وال من آل عباس

فأطرق المأمون خجلاً ساعة ثم رفع رأسه وقال: يُنفى ابن
أبي نعيم إلى السند.

وكان المأمون يميل إلى مذهب القدماء، ويتعصب للأوائل من الشعراء. ويذكر الرواة في ذلك أن رجلاً دخل عليه فأنشده:

حَيَّاكَ رَبُّ النَّاسِ حَيَّاكَ
إِذْ بَجَّاهُ الْوَجْهَ رَدَّاكَ
بَغْدَادَ مِنْ نوركِ قَدْ أَشْرَقَتْ
وَأورِقَ الْعُودِ بِجَدِّ وَاكِ
فَأَطْرَقَ الْمَأْمُونُ سَاعَةً ثُمَّ أَنْشَدَ:

حَيَّاكَ رَبُّ النَّاسِ حَيَّاكَ
إِنَّ الَّذِي أَمَلْتَ أَخْطَاكَ
أَتَيْتَ شَخْصاً كَيْسَهُ قَدْ خَلَا
وَلَوْ حَوَى شَيْئاً لَأَعْطَاكَ

فالمأمون يبيِّن لهذا الرجل بطريقة غير مباشرة أن شعره ضعيف بمقدور كلِّ الناس أن يقولوا أمثلة.

وفي مجلس المأمون حضر إبراهيم من المهدي وقال: يا أمير المؤمنين سأحدِّثك بحديثٍ عجب في التطفيل عن نفسي. قال:

قل يا ابراهيم. قال: يا أمير المؤمنين خرجت يوماً فمررت في سكك بغداد فشممت رائحة أباريز (توابل) من جناح في دارٍ عالية، وقدورٍ قد فاح قُتارُها^(١) فوقفت على خيَّاط فقلت: لمن هذا الدار؟ فقال: لرجلٍ من التجار من البزازين^(٢). فرفعت طرفي إلى الجناح فإذا فيه شبَّاك فنظرت إلى كفٍّ خرجت من الشبَّاك ومعصم ما رأيت أحسن منها قط. فوقفت باهتاً، ثم قلت للخيَّاط. هو ممن يشرب النبيذ؟

قال: نعم. وأحسبُ أنَّ عنده اليوم دعوّه.

فأنا كذلك إذا أقبل رجلان نبيلان راكبان. فقال لي الخياط: هذان منادماه. فحرَّكت دابتي حتى دخلت بينهما وقلت: جُعلت فداكما قد استبطأ كما أبو فلان أعزَّه الله.

فدخلت ودخلا. فلما رأني صاحب المنزل لم يشك إلاَّ أنني منهما بسبيل. فرحَّب وأجلسني في أجلِّ موضع. وجيء بالمائدة ثم رُفِع الطعام، وصرنا إلى مجلس المنادمة فإذا هو أنبل

(١) قُتار: دخان ذو رائحة ينبعث من الطبخ أو الشواء.

(٢) البزاز: بائع الثياب.

مجلس، وأجلُّ فرش، حتى إذا شربنا أقداحاً خرجت علينا
جارية تتننى كأنها غصن بانٍ. فسَلَّمت غير خجلة وأُتِي بعود،
فوضع في حجرها ثم اندفعت تغني:

توهمها طرفي فآلم خدَّها

فصار مكان الوهم من نظري أثر

وصافحها كفي فآلم كفَّها

فمن لمس كفي في أناملها عقرُ

ومرَّت بقلبي خاطراً فجرحتها

ولم أر شيئاً قطُّ يجرحه الفكرُ

فهيَّجت بلابلي، وطربت لحسن غنائها، وخذقتها. ثمَّ

اندفعت تغني:

أشرتُ إليها هل علمت مودتي

فردت بطرف العين إنِّي على العهد

فحدثُ عن الإظهار عمداً لسرها

وحادت عن الإظهار أيضاً على عمد

فصحتُ السلامة. واندفعت تغني:
أليس عجيباً أن بيتاً يضمُّني
وإيّاك لا نخلو ولا نتكلّم
سوى أعينٍ تشكو الهوى بجفونها
وترجع أحشاء على النار تضرّم
إشارة أفواهٍ وغمز حواجبٍ
وتكسير أجفانٍ وكفٍّ يسلم

فحسدتها على حذقها ومعرفتها بالغناء وإصابتها معنى الشعر.
فقلت: بقي عليك يا جارية شيء، فغضبت، وضربت بعودها
الأرض ثمّ قالت: متى كنتم تُحْضرون مجالسكم البُغْضَاء؟ فندمت
على ما كان مني، فقلت: أليس عود؟ قالوا: بلى، فأتيت بعود
فأصلحت من شأنه ما أردت واندفعت أغني:

ما للمنازل لا يُجِبْنَ حزيناً؟
أصممن أم بَعْدَ المدي فبَلِينَا؟

راحو العشيّة روحةً مذكورة

إن متن متُنَ وإن حَيِّنَ حَيِّنَ

فما استتمته جيداً حتى خرجت الجارية فأكبت على رجلي
وهي تقول: المعذرة، وقام مولاها وكل من كانوا عندها
فصنعوا صنعها، ثم اندفعت أغني:

أبا لله هل تُمسين تذكريني

وقد سحمت عيناى من ذكرك الدّما

إلى الله أشكو بخلها وسماحتي

لها غسلٌ مني وتبذلُ علقما

فردّي مصاب القلب أنتِ قتلته

ولا تتركه ذاهلَ العقل مغرماً

فسكر القوم وخرجوا من عقولهم، وفي النهاية خلوت مع
صاحب المنزل، فقال لي من أنت يا مولاي فلم يزل يلح حتى
أخبرته. فقام فقبّل رأسي، فأخبرته خبر الطعام والمعصم
والكف، فقال: يا فلانة قولي لفلانة تنزل فجعل يُنزل إلى
جواريه واحدةً واحدة، حتى قال: والله ما بقي غير أمي

وأختي، فقلت له: أبدأ بالأخت قبل الأم فعسى أن تكون صاحبتني، فقال: صدقت، ففعل، فلما رأيت كَفَّها ومعصمها قلت: هي هي، فأمر غلمانَه فصاروا إلى عشرة مشايخ، ثمَّ قال: هذه أختي فلانة وأنا أشهدكم أنّي زوّجتها من سيّدِي ابراهيم بن المهدي وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم. فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل إليّ من الجهاز ما ضاق عنه دوري فتعجّب المأمون من كرم ذلك الرجل.

لم تكن الندوات في قصر المأمون مقتصرةً على الاتجاهات الأدبية واللغوية والبلاغية وإنما شملت أيضاً الاتجاهات الغنائية والدينية والعلمية.

وقد تسابق الناس في هذا العصر إلى الأخذ بالثقافة الأدبية شعراً ونثراً وخبراً ونادرة. فقلما تجد إنساناً في هذا العصر لا يحسن من ضروب البلاغة شيئاً إما دراية أو رواية^(١).

وهناك شروط لمناداة الخلفاء تبدأ من جمع العلوم والمعرفة بأداب الكلام وحضور البديهة وسرعة الجواب.

(١) مجالس الأدب في قصور الخلفاء العباسيين - د. مصطفى البشير - ص ٥٧.

وممارُوي أنَّ الحسن بن سهل كان في يده ضِعْثٌ^(١) من
أطراف الأراك فسأله المأمون عنه، فقال: ما هذه؟ فقال:
محاسنك يا أمير المؤمنين تجنُّباً لأن يقول مساويك^(٢).

(١) الضِعْثُ جمع أضغاث: قبضة حشيش يختلط فيها الرطب باليابس.
(٢) مجالس الأدب في قصور الخلفاء العباسيين - د. مصطفى البشير -
ص ٤٤.

مصادر البحث

- ١ - الأصبهاني - الأغاني - دار صعب - بيروت ١٩٨٧.
- ٢ - ابن عبد ربه - العقد الفريد - لبنان ١٩٨٦.
- ٣ - ابن خلكان - وفيات الأعيان - مصر ١٣١٠هـ.
- ٤ - د. مصطفى البشير - مجالس الأدب في قصور الخلفاء العباسيين - لبنان ٢٠٠٤.

مجلس الصاحب بن عبّاد

هو أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد بن عباس الأصفهاني المعروف بالصاحب بن عبّاد وهو أحد أعيان العصر البويهي، كان وزيراً من نوادر الوزراء الذين غلب عليهم الأدب. وُلِدَ عام ٣٣٦هـ - ٩٣٨م في شيراز في أسرة موسره وتربّى على الكرم والأخلاق الحميدة، استكتبه ابن العميد، ثمّ استوزره الملك مؤيد الدولة البويهي ثمّ فخر الدولة شاهنشاه البويهي، وتصدّر للوزارة بعد ابن العميد عام ٣٦٧هـ.

قال عنه الثعالبي في كتابه «يتيمة الدهر» (ليس تحضرنى عبارة للإفصاح عن علوّ محلّه في العلم والأدب، وجلالة شأنه في الجود والكرم، هو صدر المشرق، وغرّة الزمان، وينبوع العدل والإحسان).

وقال ابن خلكان في وفيات الأعيان: كان نادرة الدهر،
وأعجوبة العصر في فضائله ومكارمه، كان فصيحاً، سريع
البدية، كثير المحفوظات متكلماً محققاً لغوياً نحوياً، وجلالة
قدره وعظيم شأنه مدحه خمسمائة شاعر، ولأجله ألف الثعالبي
كتابه «يتيمة الدهر» وكان أول من سمى بالصاحب من الوزراء
لأنه صحب الملك مؤيد الدولة البويهى من الصبا.

له مؤلفات وآثار عديدة منها: المحيط في اللغة - الكشف عن
مساوى المتنبي - ديوان رسائل - ديوان شعر عنوانه المعارف في
التاريخ - الوزراء.

يقول عنه أبو سعيد الرستمي:

ورث الوزارة كابراً عن كابرٍ

موصولة الأسناد بالإسنادِ

يروى عن العباس عبّادٌ

وزارته واسماعيل عن عبّاد

وقال أبو منصور الثعالبي: واحتفَّ به من نجوم الأرض،
وأفراد العصر وأبناء الفضل، وفرسان الشعر من يربو عددهم
على شعراء الرشيد ولا يقصر عنهم في الأخذ برقاب القوافي.

فإنه لم يجتمع بباب أحدٍ من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء كأبي نواس وأبي العتاهية والعتابي والنمري والأصمعي ومسلم بن الوليد ومروان بن أبي حفصه ومحمد بن منذر.

وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والري وجرجان^(١) مثل أبي الحسين السلامي وأبي بكر الخوارزمي، وأبي طالب المأموني، وأبي الحسن البويهبي، وأبي سعيد الرستمي، وأبي القاسم الزعفراني، وأبي العباس الضبي، وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجاني وغيرهم ممن لم يبلغني ذكرهم، أو ذهب عني اسمه. ومدحه وكاتبه الشريف الرضي، وأبو اسحاق الصابي.

حدّث عون بن الحسين التميمي. قال: كنت يوماً في خزانة الخلع للصاحب فرأيت في ثبث حسابات كاتبها - وكان صديقي - مبلغ عمام الخنز التي صارت تلك الشتوة في خلع الخدم والحاشية، ثمان مئة وعشرين، قال: وكان يعجبه الخنز، ويأمر بالاستكثار منه في داره.

(١) الثعالبي - يتيمة الدهر - ج ٣ - ص ١٨٩.

فنظر أبو القاسم الزعفراني يوماً إلى جميع من فيها من الخدم
والحاشية عليهم الخزوز الفاخرة الملوّنة، فاعتزل ناحيةً، وأخذ
يكتب شيئاً فسأل الصاحب عنه. فقيل إنّه في مجلس كذا يكتب.
فقال: عليّ به. فاستمهل الزعفراني ريثما يكمل مكتوبه. فأعجله
الصاحب، وأمر بأن يؤخذ ما في يده من الدرج. فقام الزعفراني
إليه، وقال: أيّد الله الصاحب^(١).

اسمعه ممن قاله تزدد به
عجباً فحسن الورد في أغصانه
قال: هات يا أبا القاسم، فأنشده أبياتاً منها:
سواك يعدُّ الغنى ما اقتنى
ويأمره الحرص أن يخزنا
غمرت الورى بصنوف الندى
فأصغر ما ملكوه الفنّى
كسوت المقيمين والزائرين
كسى لم يخل مثلها ممكنا

(١) العباس الموسوي - نزهة الجليس - ج ٢ - ص ٤٥٢.

وحاشية الدار يمـشون في

ضروب من الخـزِّ إلا أنا

فقال الصاحب: قرأت في أخبار معن بن زائدة أن رجلاً
قال: احمـلني أيها الأمير. قال: فأمر له بناقة و فرس و بـغـلة و حـمـار
و جارية ثم قال: لو علمت أن الله خلق مركوباً غير هذا
لحملتك عليه. و قد أمرنا لك من الخـزِّ بـجـبـه و قـمـيص و دارعه
و سراويل و عمامه و منديل و مطرف و رداء و كساء و جورب
و كيس. و لو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخـزِّ لأعطيناكه.
ويقف الشاعر محمد الخازن ماثلاً بين يدي الصاحب ينشده
قصيدة له:

هذا فؤادك تُهبي بين أهواء

وذاك رأيك شورى بين آراء

هواك بين العيون النجل مقتسم

داءً لعمرك ما أحلاه من داء

فيقبل عليه الصاحب بمجامعه مستعيداً أكثر أبياته، مظهراً
من الإعجاب والاهتزاز له، فلما بلغ قوله:

أدعى بأسماء نبزاً في قبائلها
كأن أسماء بعض أسمائي
أطلعت شعري وألقت شعرها طرباً
فألَّفَ بين إصباحٍ وإمساءٍ
فلما أنشد:

نعم تجنَّب «لا» يوم العطاء كما
كما تجنَّب ابن عطاءٍ لثغة الرءاء
استعاده، وصفق بيديه، ولما ختمها بهذه الأبيات:
أطرى وأطرب بالأشعار أنشدها
أحسن ببهجة إطرابي وإطرائي
ومن منائح مولانا مدائحه
لأن من زنده قدحي وإيرائي
فخذ إليك ابن عبّاد محبرةً
لا البحري يدانيها ولا الطائي

قال: أحسنت أحسنت. والله أنت. ثم أمر له بخلعه وصله.
وانتحل أحد المتشاعرين بحضرة الصاحب شعراً له وبلغه
ذلك. فقال: أبلغوه عني^(١):

سرقـت شعري وغيـري
يُضام فيه ويُجـدع
فسوف أجزيـك صـفعاً
يكدُّ رأساً وأخـدع
فسارق المال يقـطع
وسارق الشعـر يُصـنع

قال: فاتخذ الليل جملاً، وهرب من الري.
ويقول بديع الزمان الهمذاني: لما أدخلني والدي إلى
الصاحب ووصلت إلى مجلسه واصلت الخدمة بتقبيل الأرض.
فقال لي: يا بني اقعد، كم تسجد؟ كأنك هدهد!
وذكر أن الصاحب بنى داراً بأصبهان وانتقل إليها واقترح
على أصحابه وصفها فاجتمع المادحون والقائلون في مجلسه
ومنهم أبو العباس الضبيّ حيث قال:

(١) العباس الموسوي - نزهة الجليس - ج ٢ - ص ٤٥٥.

دار الوزارة ممدودٌ سرادقها
ولاحق بذرى الجوزاء لاحقها
دار الأمير التي هذي وزارتها
أهدت لها وشحاً راقته نارقتها
ومن قصيدة الشيخ أبي الحسن صاحب البريد^(١)؟
دار على العزِّ والتأييد مبناها
وللمكارم والعلياء مغناها
دار تباهى بها الدنيا وساكنها
طراً وكم كانت الدنيا تمنّاها
فالئمن أصبح مقروناً بيمينها
والئسر أصبح مقروناً بيسراها
فالربع بالمجد لا بالصحن متسعٌ
والبهو لا بالخلي بل بالعلا باهى
لما بنى الناس في دنياك دورهم
بنيت في دارك الغراء دنياها

(١) الثعالبي - يتيمة الدهر - ج ٣ - ص ٢٠٤.

ومن قصيدة أبي سعيد الرستمي^(١):

نصبن لِحَبَّاتِ القلوب حَبَائِلًا
عشِيَّةَ حَلِّ الحَاجِبَاتِ حَبَائِلًا
إِذَا نَزَلُوا أَرْضًا رَأُونِي نَازِلًا
وَإِنْ رَحَلُوا عَنْهَا رَأُونِي رَاحِلًا
يَظُنُّونَ أَنِّي سَائِلٌ فَضْلَ زَادِهِمْ
وَلَوْلَا الهوى مَا ظَنَّنِي الركب سَائِلًا

وهي قصيدة طويلة.

وللجرجاني أبيات في وصف هذه الدار:

تَحُجُّ إِلَيْكَ الأَمَالُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ
وَيُنْحَرُّ فِي حَافَتِهَا البِخْلُ وَالمحل
تَجَلَّى لِأَطْرَافِ العِراقِ سَعُودِهَا
فَعَادَ إِلَيْهَا المَلِكُ وَالأَمْنُ وَالعَدْلُ

ومن قصيدة لأبي القاسم الزعفراني:

(١) المصدر نفسه - ص ٢٠٥.

سرك الله بالببناء الجديد
تلك حال الشكور لا المستزيد
هذه الدار جنة الخلد في
الدنيا فصلها وأختها بالخلود

وهناك عشرات القصائد في كتاب يتيمة الدهر تصف هذه
الدار كما ألقيت في مجلس الصاحب قصائد كثيرة سميت
بالبرذونيات والفيليات وهناك الوصف والرثاء والمدح.
وروي أن أبا منصور البيعي قال: دخلت يوماً على
الصاحب، فطاولت الحديث فلما أردت القيام قلت: لعلِّي
طوّلت فقال: لا. بل تطوّلت.

قلت: لعلّ الشاعر أخذ هذا المعنى من قول الصاحب:

قلت ثقلتُ إذ أتيت مراراً

قال: ثقّلتَ كاهلي بالأأيادي

قلت: طوّلت قال: لا. بل

تطوّلت وأبرمت جبل ودادي

وقال الصاحب: ما قطعني إلا شاب بغدادي ورد علينا.
فقصدني فأذنت له. وكان عليه مرقعه وفي رجليه نعل طافٍ.
فنظرت إلى حاجبي فقال له وهو يصعد: اخلع نعلك. فقال له:
ولعلي أحتاج إليها بعد ساعة. فغلبنني الصُّحك. وقلت: تراه
يريد أن يصفعني.

وروي أن الصاحب أحر جائزة بعض الشعراء فأهدى
الشاعر له نرجساً فقال الصاحب:

لَمَّا أَطَلْنَا عَنْهُ تَغْمِيضاً
أَهْدَى لَنَا النَّرْجِسَ تَعْرِيضاً
فَدَلَّنَا ذَاكَ عَلَى أَنَّهُ
قَدْ اقْتَضَانَا الصُّفْرَ وَالْبَيْضاً

وله ملح في الخمریات منها قوله:

رَقَّ الزَّجَاجُ وَرَقَّتْ الخَمْرُ
وَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلُ الأَمْرُ
فَكأنَّهَا خَمْرٌ وَلَا قَدْحُ
وَكأنَّهَا قَدْحٌ وَلَا خَمْرُ

وهناك غرر من فقر ألفاظ الصاحب تجري مجرى الأمثال مثل:

- من استباح البحر العذب استخرج اللؤلؤ الرطب.
- من نبت لحمه على الحرام لم يحصده غير الحسام.
- من غرّته أيام السّلامة حدّثته ألسنة الندامة.
- إنجاز الوعد من دلائل المجد، واعتراض المطل من إمارات النجل.
- وعده برقّ خلّب، وروغان ثعلب.
- ألفاظ كما نورّت الأشجار، ومعانٍ كما تنفّست الأسحار.

نحن يا سيّدي في مجلس غنيّ إلّا بك، وقد تفتّحت فيه عيون
النجس وتورّدت حدود البنفسج، وانطلقت ألسنة العيدان،
وقام خطباء الأوتار، وهبّت رياح الأقداح لكنّا بغيبتك كعقد
غيّيت واسطته، وشباب أخذت جدّته. فأحبّ أن تكون إلينا
كالماء في انحداره، والقمر في مداره. وله أشعار في المدح
والوصف والهجاء وفي سائر الفنون. وفي آخر أيام مرضه أذن
للناس فحلّ وعقد وأمر ونهى وأملى كتباً تعجّب الحاضرون من
حسنها، وفرط بلاغتها وقال:

كلامنا من غُررَ
وعيشنا من غُرر^(١)
إني وحق خالقي
على جناح السَّفر

ثمّ كانت ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس
وثمانين وثلاثمئة انتقل إلى جوار ربّه.

(١) الثعالبي - يتيمة الدهر - ص ٢٦٩.

مصادر الدراسة

- ١ - الثعالبي - يتيمة الدهر - دار الكتب العلمية ١٩٧٩.
- ٢ - العباس الموسوي - نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس -
إيران - المكتبة الحيدرية.
- ٣ - القرطبي - بهجة المجالس - وزارة الثقافة - دمشق - ٢٠٠٥.

مجلس المعتمد بن عبّاد

هو أبو القاسم المعتمد على الله بن عبّاد ولد في باجة بالأندلس سنة ٤٣١هـ، وهو ثالث وآخر ملوك بني عبّاد في الأندلس، خلف والده المعتضد، حيث أصبح ملكاً لإشبيلية وقرطبة في عصر ملوك الطوائف قبل أن يقضي على إمارته المرابطون، ولقد كان المعتمد صورةً صادقةً للشاعر الأندلسي، وفي عهده أصبحت إشبيلية قطب الحركة الأدبية والشعرية.

واستطاع بنو عبّاد أن يجمعوا في دولتهم الزعامة السياسية والزعامة الأدبية ويدهشنا هذا الرواج للشعر في مختلف الطبقات الأندلسية ولا سيما في زمن ملوك الطوائف. فهو ظاهرة وطنية ساعدتها ظروف المحيط السياسية والاجتماعية والطبيعية حتى أصبح على فم كلّ إنسان، فهو في نظر العامل والفلاح الأندلسي نشيد ينسيه أتعابه، وهو في نظر الوزير

والأمير هرب من مشاغل السياسة والإدارة، وهو في نظر الشاعر الرسمي أو شاعر البلاط سبب الرزق، ويمكننا أن نقول: إنَّ الشعر كان في نظر الأندلسي على الإطلاق رمزاً للفخر، وما كان الأمير ليجد في ممارسته غضاضة أو نقصاً بل على العكس فخاراً ومجداً.

ولهذا رغب الأندلسي في الشعر لهذا التناسق الموسيقي الذي تختلج به القلوب والشفاه، ولأنَّه كلام مجنَّح وموسيقى قبل أن يكون ألفاظاً فهم يغنونه ولا يلقونه إلقاءً^(١).

وعهد ملوك الطوائف كان عهداً لاقى فيه الأدباء والشعراء كلَّ رعاية وعطف ويبدو أنَّ ملوك بني عباد هم أولى ملوك الطوائف. كانوا شعراء وكان بلاطهم متدى الأدب في عصرهم. فهذا المعتضد يجعل يوماً من أيام الأسبوع «الإثنين» للشعراء الذين يفدون إليه. فيطارحهم الشعر ويستمع إليهم ويحيز السابق بينهم، ويشحذ همهم للنظم.

(١) في الأدب الأندلسي - د.جودت الركابي - دار المعارف بمصر - ص ٧٧-٧٨.

وجاء المعتمد فبزَّ أباه في هذا المضمار حتى أصبح بلاطهم
مركزاً للحركة الأدبية في الأندلس.

ولقد فاقت شهرة المعتمد الأدبية والشعرية شهرته في السياسة
والملك وفي أيامه نفقت سوق الأدب، فتسابقوا إليه، وتهافتوا عليه.
وشعره مدوّن^(١)، موجود بأيدي الناس. ولم يكن في ملوك
الأندلس قبله أشعر منه، ولا أوسع مادة.

ومحاسن المعتمد في أشعاره كثيرة، وخصوصاً مرثيته لأبنائه
وتفجُّعه لزوال سلطته. وقد ظهر في عهده شعراء معروفون
مثل أبي بكر ابن عمَّار وابن زيدون وابن اللبانة وغيرهم.

وأصبح الشاعر أبو بكر بن عمَّار من المقرَّبين إليه، وكان له
دور كبير في إدارة، دولته حيث عينه وزيراً له، وأخذت علاقة
الصدّاقة بينهما تقوى بسرعة خصوصاً لحبِّهما للشعر، حتى قال
المراكشي عن المعتمد بن عبّاد (يشاركه فيما لا يشارك به الرجل
أباه ولا أخاه). بل ويروي المراكشي: أنّه في إحدى الليالي
استدعى المعتمد بن عمَّار وأكرمه أكثر من المعتاد.

(١) الحلة السراء - ابن الأثير - ٥٥/ح.

ويروي المراكشي: أن ابن عمّار خطر له في تلك الليلة أن ابن عبّاد سيقتله فانتابه الفرع، ولفّ نفسه بإحدى الحصى، وفرّ هارباً إلى دهليز القصر، ونوى الهرب واجتياز البحر إلى المغرب باليوم التالي قاصداً جبال البربر. لكن في الصباح افتقده ابن عبّاد ففتّش عنه ووجده وهو ملفوف بالحصير فسأله مستغرباً يا أبا بكر ما الذي حملك على هذا؟ فحكى له قصّته. فضحك ابن عمّار وقال: يا أبا بكر. أضغاث أحلام.

وها هو ابن زيدون في إشبيلية يرعاه المعتضد ويحتفي به احتفالاً رائعاً. وقد ولّاه الوزارة، ولقّبهُ بذي الوزارتين، وقلّده أمور دولته واستكتبه، فكانت الكتب تنفذ في إنشاء أبي الوليد إلى شرق الأندلس، فيقال تأتي كتب من إشبيلية هي بالمنظوم أشبه منها بالمتنور^(١).

وقد بقي ابن زيدون وزير المعتضد وشاعره المفضّل إلى أن توفي سنة ٤٦١ هـ فلمّا تولّى الملك ابنه المعتمد (وكان له من العمر ثلاثون عاماً) حظي بالمكانة نفسها التي كان يتمتع بها عند أبيه،

(١) الذخيرة - ابن بسّام - ج ١ - ص ٢٩٠.

ولا عجب في ذلك فالمعتمد شاعر محب للأدباء وكان بلاطه
قبلة كل أديب، وموئل كل فنّان عبقرى.

وقد حاول أعداء ابن زيدون بعد وفاة المعتضد الإيقاع به،
ولكنّ المعتمد لم يُصغ لأقوال هؤلاء الأعداء، فبقي أثراً عنده.
وقد حفظ الشاعر للملكه هذا الموقف النبيل فمدحه بقصيدة
عرّض فيها بحسّاده وعتهم بالبغاة ومطلعها:

الدهرُ إن أُملى فصيحٌ أعجمُ
يُعطي اعتباري ما جهلتُ فأعلمُ
إنّ الذي قَدَرَ الحوادثَ قَدَرها
ساوى لديه الشهد منها والعلقمُ

ولابن زيدون مدائح كثيرة جليّة غير هذه، وله معه
مداعبات ومساجلات والمملكة العبادية التي عاش في كنفها
ابن زيدون عرفت عدداً من الشعراء. كما أنّ القاضي المؤسس
للدولة كان يتذوّق الشعر وينظمه. وكذلك ولده المعتضد الذي
وصلتنا منه أبيات ومقطوعات تشير إلى تعمّقه في مجال الشعر.
ومن أقواله الرقيقة في وصف مجلس أنس:

وليلٍ أدمنا فيه شربَ مدامَةٍ
إلى أن بدا للصبح في الليل تأثيرُ
وجاءت نجوم الصبح تضرب في
فولت نجوم الليل والليل مقهور
فحزنا من اللذات طيبَ طيبها
ولم يَعدنا همٌّ ولا عاقَ تكدير
خلا أنه لو طال دامت مسرَّةُ

ولكن ليالي الوصل فيهن تقصير^(١)

أما المعتمد بن عبَّاد فهو من كبار شعراء الأندلس، وأجمل قصائده تلك التي نظمها في الأسر، وهي تعتبر من عيون الشعر الوجداني. ولما شعر بدنو أجله أوصى بأن تكتب على قبره هذه الأبيات:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي
حقاً ظفرت بأشلاء ابن عبَّاد

(١) ديوان ابن زيدون - دار الكتاب العربي - بيروت - ص ١٢.

بالباعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا
بالخصب إن أُجذبوا بالريّ للصادي

فلا تزل صلوات الله دائمة
على دفينك لا تُحصى بتعداد

فضلاً عن بني عبّاد عرفت تلك المرحلة من الشعراء الكبار
أبا بكر بن عمّار الذي مرّ به المعتمد وصادقه ثمّ قتله بعد أن
اتهمه بهجائه، نظم الشعر باكراً ووضع قصائد امتازت بالرّقة
وحسن الإيقاع جاء في مطلع إحدى قصائده المدحيه:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح أهدي لنا كافوره
لما استردّ الليل منّا العنبرا
والروض كالحنسنا كساه زهره
وشياً وقلّده نداءه الجوهرا
روض كأنّ النهر فيه معصم
صافٍ أطلّ على رداءٍ أخضرا

وتهزُّه رِيح الصَّبَا فتخال
سيف ابن عبَّاد يبدُّ عسكرا
ومن شعره في تهنئة المعتمد بن عبَّاد وقد ولد له ولدان:
اهناً بنجليك من أنثى ومن ذكر
لا تَعَدَم الضوء بين الشمس والقمر
ومما قاله في ذمِّ المعتمد وأبيه^(١):

مَّا يزهدني في أرض أندلسِ
أسَاءٌ معتضدٍ فيها ومعتمد
ألقاب مملكةٍ في غير موضعها
كالهَرِّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

ومن شعراء بلاط بني عبَّاد أبو بكر بن اللبانة الذي لازم
المعتمد في أيام سعه وزاره بأغمت في يوم محنته وقد توفي
٥٠٧هـ - ١٢١٣م.

ومنهم ابن حمديس الصقلي الأزدي، ومن أبدع قصائده في
النَّسب قصيدة نقتطف منها بعض الأبيات:

(١) ابن خلكان - ج ٤ - ص ٤٢٨.

طَرَقْتُ وَاللَّيْلَ مَمْدُودَ الْجَنَاحِ
مَرْحَباً بِالشَّمْسِ فِي غَيْرِ صَبَاحٍ
سَلَّمَ الْإِيْمَاءَ عَنْهَا خَجَلًا
أَوْ مَا كَانَ لَهَا النُّطْقُ مَبَاحُ؟
غَادَةَ تَحْمَلُ فِي أَجْفَانِهَا
سَقْمًا فِيهِ مَنِيَّاتُ الصَّحَّاحِ
هَمَّتْ بِالْغَيْدِ فَلَوْ كُنْتَ الصَّبَا
لَمْ يَكُنْ مَنِّيَ عَنْنَهُنَّ بَرَاحُ
وَمِنَ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ اتَّصَلُوا بِبِلَاطِ بْنِ عَبَّادٍ بَعْدَ وَفَاةِ ابْنِ زَيْدُونَ
أَبُو الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنِ عَبْدِ الْغَنِيِّ الْحَصْرِيِّ الْفَهْرِيِّ الضَّرِيرِ.
وَقَدْ بَرَزَ الْحَصْرِيُّ فِي عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا تَرَكَ عَدَدًا مِنْ
الْقَصَائِدِ أَشْهَرَهَا:

يَا لَيْلُ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ
أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعَدُهُ؟
رَقْدُ السَّهَارِ فَأَرْقُهُ
أَسْفُؤُ اللَّبِيِّنِ يَرْدُّدُهُ

وهي قصيدة طويلة نالت شهرة واسعة. عارضها عدد من الشعراء أمثال أحمد شوقي وإسماعيل صبري وولي الدين يكن وجميل صدقي الزهاوي.

ولابن زيدون ديوان شعر مطبوع حققه يوسف فرحات ونشره دار الكتاب العربي عام ١٩٩٤ يقع في ٣٤٧ صفحة، معظمه في مدح ابن جهور والمعتضد والمعتمد بن عبّاد الذي عادته في بعض عله فقال يشكره:

لست بالجاحد آلاء العلل
كم لها من ألمٍ يُدني الأمل
أجتلي من أجلها بدر العلى
مُشرقاً في منزلي حين كمل
ويجيب المعتمد على شعر بعث به إليه:
أمولايَ بلغتَ أقصى الأمل
وسوّغت دأباً نساءً^(١) الأجل

(١) نساء الأجل: طول العمر.

سَعِدْتَ كَمَا سَعِدَ الْمُشْتَرِي
وَنَلْتِ عَلَيَّ لَمْ يَنْلُهَا زُحَلٌ
وقال يهنئ المعتمد بقدوم وإبلال من مرض:
أَقْدَمُ كَمَا قَدِمَ الرَّبِيعُ الْبَاكِرُ
وَاطْلُعَ كَمَا طَلَعَ الصَّبَاحُ الزَّاهِرُ
أَضْحَى الزَّمَانَ نَهَارُهُ كَافُورَةٌ
وَاللَّيْلُ مِسْكٌ مِنْ خِلَالِكَ عَاطِرُ
وأهدى تفاحاً وأراد أن يكتب معه قطعة، فبدأ بها قائلاً^(١):
دُونِكَ الرَّاحَ جَامِدَةً
وَفَدَّتْ خَيْرَ وَافِدَةٍ
وَجَدْتَ سَوْقَ ذَوِيهَا
عِنْدَ تَقْوَاكَ كَاسِدَةٍ
فَاسْتَحَالَتْ إِلَى الْجَمْرِ
دَوَجَاءَاتِ مُكَايِدَةٍ

(١) ديوان ابن زيدون - ص ٩٩.

يقول له: الخمرة السائلة سوقها كاسدة لديك. ولذا
استحالت جامدةً وجاءتك تحتال وتكايد.

كما يجيب المعتمد على عتاب:

أفاض سماحك بحر الندى
وأقبس هديك نور الهدى
ورددت لحظي في غرة
إذا اجتليت شفت الأرمدا
وطاعة أمرك فرض أرا
ه من كل مُفترض أو كدا

ومما يحكى أن المعتمد تعرّف إلى امرأته اعتماد الرميكية عن طريق
الأدب فقد زعموا - كما يقول المقري - أن المعتمد ركب في النهر
ومعه ابن عمّار وزيره ينتزهان قرب مرج الفضة على شاطئ الوادي
الكبير، فأعجب بمنظر الماء المتموج فقال: صنع الريح من الماء زرد.

ثم طلب إلى ابن عمّار أن يجيزه، فأطال ابن عمّار الفكرة.
وكان على الشاطئ جوار يملأن جرارهن فردت إحداهن: أي
درع لقتال لو جمد.

فتعجب ابن عبّاد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمّار. ونظر إليها فإذا هي صورة حسنة. فسألها: أذات زوج هي؟ فقالت: لا. فتزوَّجها وولدت له أولاده الملوك النجباء^(١). وقد أخذ من اسمها لقباً رسمياً لنفسه في تاريخ دولة بني عبّاد العربية التي قامت في إشبيلية وحكمت من ٤١٤هـ إلى ٤٨٤هـ. وهي من أبهج الدول في الفضل والكرم وحب الأدب. وقد تفيأ شاعرنا ابن زيدون في عهد ملكيها المعتضد والمعتمد ظلال النعم.

وكان المعتمد على الله نسبة إلى اعتماد وفي ذلك يقول:

دسستُ اسمك الحلو في طيِّه

وألفْتُ منه حروف اعتماد

وقد ألف ابن بسّام عن شعره كتاب «الاعتماد على ما صحَّ من شعر المعتمد ابن عبّاد».

ومن أخبار الرميكية القصّة المشهورة في قولها «ولا يوم الطين» وذلك أنّها رأت الناس يمشون في الطين، فاشتتت المشي فيه، فأمر المعتمد، فسُحِقَتْ أشياء من الطيب، ودُرَّت في

(١) المقري - نفع الطيب - ١١٠٠ / ٢.

ساحة القصر، ونصبت الغراييل، وُصِبَ فيها ماء الورد على أخلاط الطيب، وعُجنت بالأيدي حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريتها. وغاضبها في بعض الأيام، فأقسمت أنها لم ترَ منه خيراً قط. فقال: ولا يوم الطين؟ فاستحيت واعتذرت.

ويتابع المقرئ الخبر قائلاً: وهذا مصداق قول نبينا (ﷺ) في حق النساء «لو أحسنت إلى إحداهنّ الدهر كلّه ثم رأت منك شيئاً. قالت: ما رأيت منه خيراً قط».

ولعلّ المعتمد يشير إلى هذه الحادثة في أبياته الرائية حيث قال في بناته:

يطأن في الطين والأقدام حافيةً

كأنّهم لم تطأ مسكاً وكافورا

لقد كانت مجالس ابن عبّاد تشبه مجالس هارون الرشيد في جمعها لرجال الأدب والسياسة والشعر، وتعطينا أسرة بني عبّاد نموذجاً واضحاً لمدى اهتمام هذا الأمير بالأدب والتعلُّق بالشعر.

ولم يزل في صفاءٍ ودعةٍ إلى سنة ٤٨٧ هـ وفيها استولى ملك الروم ألفونس السادس على طليطله، وأرسل إلى المعتمد يهدده، ويدعوه إلى النزول عمّا في يده من الحصون. فكتب المعتمد إلى يوسف بن تاشفين (صاحب مراکش) يستنجده، وإلى ملوك الأندلس يستشير عزائمهم.

ونشبت في سنة ٤٧٩ هـ معركة الزلاقة الشهيرة التي انهزم فيها «ألفونس» وثار فتنة في قرطبة قتل فيها ابن للمعتمد، وفتنة ثانية في إشبيلية أطفأ المعتمد نارها، ثم أتقدت وظهر من ورائها جيش يقوده «ابن أبي بكر الأندلسي» من قواد جيش ابن تاشفين. وحوصر المعتمد في إشبيلية واستسلم للأسر سنة ٤٨٥ هـ وحمل مع أهله على سفينة وأدخل على ابن تاشفين في مراکش حيث أمر بإرساله ومن معه إلى «أغمات» وهي بلدة صغيرة وراء مراکش.

وكانت طنجة هي المرحلة الأولى في طريق المعتمد إلى منفاه حيث مكث أياماً تهافت عليه فيها الشعراء كما كانوا يتهافتون على بلاطه في إشبيلية وهم الشاعر الفهري المعروف بالحصري الضير الذي دخل على المتعمد بعد موت أبيه المعتضد فأنشده ارتجالاً:

مات عبَّادٌ ولكنْ
بقي الفرع الكريم
فكانَّ البيتُ حيًّا
غير أنَّ الضاد مميم
وهو صاحب القصيدة المشهورة:

يا ليل الصبُّ متى غده
أقيام الساعة موعده
رقد السمار وأزقه
أسف للبين يردده

التي عارضها مجموعة من الشعراء ومن أشهرهم أحمد
شوقي بقصيدته التي يقول في مطلعها:

مضناك جفاه مرقده
وبكاهُ ورَّحَم عودُه
حيران القلب معذبُه
مقروح الجفن مسهدهُ

وقد كانت للحصري دالة على المعتمد، وله في دولته قصائد.
كما ألف له كتاب «المستحسن من الأشعار»
ويشاء القدر ألا يتمكن من رفعه للمعتمد إلا وهو أسير في
طنجة فيأخذ الكتاب بصلة هزيلة هي كل ما يملك الملك
الأسير مع قطعة اعتذار شعرية وهكذا مكث في طنجة أياماً
معدودات قال فيها:

شعراء طنجة كلهم والمغرب
ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه
بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة خميئة
طي الحشا ساواهم في المطلب

وقد استقبل المعتمد في منفاه شاعره أبا بكر بن اللبانة. وقد
خلد هذا الشاعر قصة المعتمد، وألف كتاب «نظم السلوك في
وعظ الملوك»، الذي ينقل عنه المقرئ كثيراً من أخبار المعتمد،
كما ألف كتاب «سقط الدرر ولقيط الزهر» في شعر ابن عبّاد.

وقد سجّل الشاعر ابن اللبانة مشهد الأسر والنفي الحزين بقوله:

حان الوداع فضجّت كلُّ صارخةٍ
وصارخ من مفدّاةٍ ومن فادٍ
سارت سفائنهم والنوح يتبعها
كأنّها إبلٌ يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت
تلك القطائع من قطعات وأكباد
ويظلُّ الأمير الشاعر رهين مجسه وقد ضاع ملكه وتشرّدت
عائلته ويستفيق ذات مرّة مع العيد ليستعيد ذكريات كانت حلماً:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً
فساءك العيد في أغصان مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعةً
يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعةً
أبصارهنّ حسيّاتٍ مكسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية
كأنّها لم تطأ مسكاً وكافورا

وبقي في أغمات إلى أن مات عام ٤٨٨هـ - ١٠٩٥ م، ولننشد
مع الوزير الوفي الشاعر لسان الدين بن الخطيب وقد وقف على
قبر المعتمد:

لَمْ لَا أَزورك يا أندى الملوك يداً
ويا سراج الليالي المدلهتات
كُرمت حياً وميتاً واشتهرت عُلاً
فأنت سلطان أحياء وأموات
ونختم بأبياته الشهيرة التي قالها حينما قبض عليه يوسف
بن تاشفين:

قالوا: الخضوع سياسة
فليبدُ منك لهم خضوعُ
وألدُّ من طعم الخضوع
على فمي السُّمُّ النقيعُ
ما سرت قَطُّ إلى القتال
وكانَّ من أملي الرجوعُ
شيم الألى أنا منهمُ
والأصلُ تتبعهُ الفروعُ

مصادر الدراسة

- ١ - ابن الأبار - الحلة السراء - نشر دوزي منها مقتطفات مدريد.
- ٢ - ابن بسّام - الذخيرة في محاسن - أهل الجزيرة - القاهرة ١٩٤٥.
- ٣ - ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة.
- ٤ - ابن خلكان - وفيات الأعيان - تحقيق. د. إحسان عباس ١٩٧٧.
- ٥ - د. جودت الركابي - في الأدب الأندلسي - دار المعارف بمصر
- ٦ - المقري - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - دار صادر - بيروت.
- ٧ - عبد الواحد المراكشي - المعجب في تلخيص أخبار المغرب.
- ٨ - عبد الوهاب عزام - المعتمد بن عباد - دار المعارف - القاهرة.
- ٩ - علي أدهم - المعتمد بن عباد - مكتبة مصر - القاهرة.
- ١٠ - يوسف فرحات - ديوان ابن زيدون - دار الكتاب العربي ١٩٩٤.

مجالس سيف الدولة الحمداني

٩٤٤ - ٩٦٧ م

هو الأمير سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله حمدان.
أحاط سيف الدولة نفسه في قصره بحلقة من أرباب
الأدب والفن والفكر تكاد لا تباريها إلا حلقات خلفاء بغداد
في أيام عزهم.

فقد ضمت الفيلسوف الشهير، والموسيقي البارع أبا نصر
الفارابي، ومؤرخ الأدب العربي اللامع أبا الفرج الأصبهاني،
والواعظ البليغ ابن نباتة والعالم اللغوي ابن خالويه، والنحوي
الشهير ابن جنّي، والشاعر الفارس^(١) أبا فراس الحمداني.
وفوق هؤلاء جميعاً الشاعر المدّاح الأشهر أبا الطيّب المتنبي.

(١) د. فيليب حتي - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - القسم الرابع -
ص ١٩٣.

قال الثعالبي في كتابه يتيمة الدهر «كان بنو حمدان ملوكاً
وأمرء أوجههم للصبحه وألستهم للفصاحة، وأيديهم
للسماحة، وعقولهم للرجاحة».

وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وبواسطة قلاذتهم. وكان غرة
الزمان ودعامة الإسلام، وبه سداد الثغور، وسداد الأمور.

وكان أديباً شاعراً محبباً لجيد الشعر^(١) شيّد قصره الشهير بقصر
الحلبة على سفح جبل المجوشن وقد اختار كل من أبي عبد الله
الكاتب. وأبي الحسن علي بن محمد السميساطي من مدائح الشعراء
لسيف الدولة عشرة آلاف بيت كقول أبي الطيّب المتنبي:

فلا تعجبا إن السيوف كثيرة
ولكن سيف الدولة اليوم واحد
أحبك يا شمس الزمان وبدره
وإن لأمني فيك السهى والفراقد
فأنت حسام الملك والله ضارب
وأنت لواء الدين والله عاقد

(١) الثعالبي - يتيمة الدهر - ج ١ - ص ٨.

وكقول أبي فراس الحارث بن سعيد:

أشَدَّةُ ما أراه فيك أم كرم
تجود بالنفس والأرواح تصطلمُ
يا باذل النفس والآمال مبتسماً
أما يهولُك لا موتٌ ولا عدمٌ

أو كقول أبي العباس أحمد النامي:

خُلِقْتَ كما أرادتكَ المعالي
فأنت لمن رجاكَ كما يريد
عجيبٌ أن سيفك ليس يُروى
وسيفك في الوريد له ورود
وأعجب منه رحك حين يُسقى
فيصحو وهو نشوان يميذُ

وقد وقف المتنبي شعره على سيف الدولة وهو الوحيد الذي
اشترط على الأمير أن ينشده وهو جالس، وأن
لا ينحني، ويقبّل الأرض بين يديه واستنشد سيف الدولة أبا
الطيب المتنبي قصيدته التي أولها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وكان معجباً بها كثير الاستعاده لها، فاندفع أبو الطيب
يُنشدها فلما بلغ قوله منها:

وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهونائم
تمربك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثرغرك باسم
قال له الأمير: انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتقد على
امرئ القيس قوله:

كأنني لم أركب جواداً للذة
ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل
لخيلي كرى كرى بعد إجمال
وبيتاك لا يلتئم شطراهما كما لا يلتئم شطرا هذين البيتين كان
ينبغي لامرئ القيس أن يقول:

كأني لم أركب جواداً ولم أقل
لخيلي كرّي كرّة بعد إجمال
ولم أسبأ الزقّ الرويّ وللدّة أقل
ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال
ولك أن تقول:

وقفت وما في الموت شكُّ لواقف
ووجهك وضاحٌ وثغرك باسم
تمرّبك الأبطال كلمى هزيمةً
كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبي: أيّد الله الأمير. إنّ الثوب لا يعرفه البزاز معرفة
الحائك؛ لأنّ البزاز يعرف جملة، والحائك يعرف جملة
وتفاريقه لأنّه هو الذي أخرج من الغزلية إلى الثوبية.
وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذّة الركوب للصيد،
وقرن السباحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازل
الأعداء. وأنا لما ذكرت الموت في الأوّل اتبعته بذكر الردى وهو
الموت ليجانسه.

ولما كان الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً، وعينه
من أن تكون دامعةً باكية قلت وجهك وضّاح وثرغك باسم
لأجمع بين الأضداد في المعنى وإن لم يتسع اللفظ لجمعها.

فأعجب سيف الدولة بقوله ووصله خمسين ديناراً من دنانير
الصّلات وفيها خمسمائة دينار وقد أنشده سيف الدولة بيتاً وهو:

خرجتُ غداة النفر أعترض الدُّمى
فلم أرَ أحلى منك في العين والقلب

فقال أبو الطيّب:

فديناك أهدى الناس سهماً إلى قلبي
وأقتلهم للدّار عين بلا حربٍ
ومن حُلقت عيناك بين جفونه
أصاب الحدور السهل في المرتقى

وقال أبو ذر سهل بن محمد الكاتب أبياتاً منها:

يا لائمي كفّ الملام عن الذي
أضناه طول سقامه وشقائه

نفسى الفداء لمن عصيت عواذلي
في حبّيه لم أخش من رقبائه
الشمس تطلّع من أسيرة وجهه
والبدر يطلع من خلال قبائه
فأمر سيف الدولة المتنبّي^(١) بإجازة هذه الأبيات فقال:
عَذْلُ العواذل حول قلب التائه
وهوى الأحبّة في سودائه
يشكو الملام إلى اللوائم حرّه
ويصدّ حين يلمن عن برحائه
وبمهجتي يا عاذلي الملك الذي
أسخطت كلّ الناس في إرضائه
إن كان قد ملك القلوب فإنّه
ملك الزمان بأرضه وسماهته
واستزاده فقال أبياتاً مطلعها:

(١) ديوان أبي الطيب - شرح العكبري - ج ١ - ص ٢-٣.

القلب أعلم يا عدول بدائه
وأحقُّ منك بجفنه وبائه

وحكى ابن لبيب غلام أبي فرج البغاء أن سيف الدولة كان
قد أمر بضرب دنانير للصلّات، في كلّ دينار منها عشرة
مثاقيل، وعليه اسمه وصورته. فأمر يوماً لأبي الفرج منها
بعشرة فقال ارتجالاً:

نحن بجود الأمير في حرم
نرتع بين السعود والنعم
أبدع من هذه الدنانير ما
لم يجبر قدماً في خاطر الكرم
فقد غدت باسمه وصورته
في دهرنا عوذةً من العدم

فزاده عشرة أخرى.

وكان أبو فراس بين يديه في نفرٍ من ندمائه، فقال لهم سيف
الدولة: أيكم يجيز قولي؟

لـك قلبـي تُعـلُّهُ
فـدمـي لـم تحلُّهُ
وليس له إلا سيدي يعني أبا فراس . فارتجل أبو فراس فقال:
أنا إن كنت مالكا
فـلي الأمر كلُّه
فاستحسنه وأعطاه ضيعة بمنبج تغلُّ ألفي دينار^(١).

وقال الثعالبي: حدَّثني أبو الحسن محمد بن علي العلوي الحسيني. قال: كنت واقفاً بين يدي سيف الدولة بحلب والشعراء ينشدونه. فتقدّم إليه إعرابي رثُ الهَيْئَة فاستأذن الحجاب في الإنشاد. فأذنوا له. فأنشد يقول:
أنت عليٌّ وهذه حلب
قد نفذ الزاد وانتهى الطلب
بهذه تفخر البلاد وبالـ
أمير تزهى على الورى العربُ

(١) اليتيمة - ١٢/١.

وعبدك الدهرُ قد أضربنا

إليك من جور عبدك الهرب^(١)

فقال له سيف الدولة: أحسنت والله. وأمر له بهائتي دينار.
وكان الأمير الأديب يتعصّب لأبي الطيّب ويضعه في مكانه
اللائق من الذروة وكان السريّ الرفاء جالساً يوماً بحضرة
سيف الدولة وجرى ذكر المتنبي فبالغ الأمير في الثناء عليه.
فقال السريّ: أشتهي من الأمير أن ينتخب لي قسيده من غرر
قصائده لأعارضها له ويتحقّق أنّه أركب المتنبي في غير سرجه،
فقال له سيف الدولة على الفور: عارض لنا قصيدته القافية
التي مطلعها:

لعينك ما يلقي الفؤاد وما لقي

وللحب ما لم يبق مني وما بقي

ويكمل السريّ القصة فيقول: إنّه كتب القصيدة واستعادها
في تلك الليلة فلم يجدها من مختارات أبي الطيّب ولكنه لحظ أنّ
الشاعر يقول في آخرها عن ممدوحه:

(١) اليتيمة - ٣٢/١.

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق
أراه غباري ثم قال له الحق

فقال: والله ما أشار الأمير إلا إلى هذا البيت وأحجم عن معارضة القصيدة^(١).

ولا ريب في أن خصوم المتنبّي لم يتوانوا عن إثارة مشاعر الغضب عند سيف الدولة الذي قرّبه وجعله شاعره الخاص، وعلمه الفروسية واستصحبه معه في المعارك وأجزل له العطايا على حسن مدحه إياه، ووصفه معاركه.

وكان أبو فراس الحمداني لسان المستائين الناطق. فمن أقواله مخاطباً سيف الدولة: «إنّ هذا المتشدّق^(٢) كثير الإدلال عليك. وأنت تعطيه كلّ سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد، ويمكن أن تفرّق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره».

(١) خزانة ابن حجة - ص ٢٣١.

(٢) الصبح المنبي ٤٥/١

ولدينا حكاية عن مجلس أنس حضره أبو فراس وجماعته من الشعراء فبالغوا في الوقيعة في حقّ المتنبّي ومقاطعته، وهو وحيد في المجلس حين بدأ قصيدته، فلمّا وصل في إنشاده إلى قوله:

ما لي أكتمُّ حُبّاً قد برى جسدي
وتدّعي حبّ سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حبٌّ لغرته
فليت أنّا بقدر الحب نقسم
قد زرتّه وسيوف الهند مغمدة
وقد نظرت إليه والسيوف دم
يغضب الذين عناهم الأمر، ويهمّ آخرون بقتل الشاعر.
فيسكت سيف الدولة ويستمر المتنبّي في إنشاده:

يا أعدل الناس إلّا في معاملي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
فيتدّخل أبو فراس قائلاً: لقد مسخت قول دعبل الخزاعي:
ولست أرجو انتصافك ما ذرقت
عيني دموعاً وأنت الخصم والحكم

فيتابع المتنبّي:

أعيذها نظرات منك صادقةً

أن تحسب الشحمَ فيمن شحمه ورُم

فعلم أبو فراس أنه يعنيه، فيطلق شتيمة يعبر فيها عن
انزعاجه قائلاً: «ومن أنت يا دعي كنده حتى تأخذ أعراض
أهل الأمير في مجلسه».

فيتابع المتنبّي:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره

إذا استوت عنده الأنوار والظلم

سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا

بأنني خير من تسعى به قدم

إلى أن يقول:

إذا رأيت نيوب الليث بارزةً

فلا تظننَّ أن الليثَ يتسم

وكان أبو فراس يقاطعه عند كل بيت، وبالرغم من
المضايقات يخاطب سيف الدولة بقوله^(١):

يا من يعزُّ علينا أن نفارقهم
وجداننا كلَّ شيءٍ بعدكم عدم
إن كان سرَّكم ما قال حاسدنا
فما لجرح إذا أرضاكم ألم

لقد حسده الشعراء والأدباء وبعض رجال البلاط، ووشوا
به إلى سيف الدولة فأوغروا صدره عليه وساعدتهم على ذلك
استكبار الشاعر.

فأدَّى هذا إلى إساءة سيف الدولة معاملته أحياناً. وضاق
المتنبّي بالأمر، ولا سيما بعد أن جرت محاولة لاغتياله. وأهانته
ابن خالويه مؤدّب سيف الدولة في حضرة هذا ولم يتتصر له.
فغادر حلب قاصداً كافوراً الإخشيدي.

(١) أبو الطيب المتنبّي - د. بلاشير - ترجمة: ابراهيم الكيلاني - ص ٢٩٠.

وكان أبو بكر وأبو عثمان الخالديان من خواص شعراء سيف
الدولة فبعث إليهما مرّة وصيفاً ووصيفة ومع كلّ واحدٍ منهما بدره
وتخت ثياب مصري. فقال أحدهما من قصيدة طويلة^(١):

لم يغدُ شكرك في الخلائق مطلقاً
إلاّ ومالك في الأنام حبّيس
رشاً أتانا وهو حسناً يوسفٌ
وغزاةٌ هي بهجةٌ بلقيس
أت الوصيفة وهي تحمل بدرةً
وأتى على ظهر الوصيف الكيس
فعدالنا من جودك المأكول والـ
مشروب والمنكوح والملبوس

فقال له سيف الدولة: أحسنت إلاّ في لفظة المنكوح فليست
مما يخاطب بها الملوك وهذا من عجيب نقده.

(١) العباس الحسيني الموسوي - نزهة الجليس ومنية الأديب النفيس -
ص ٢٢٣.

ويُحكى أنه كان لسيف الدولة جارية من بنات^(١) ملوك الروم
لا يرى الدنيا إلا بها ويشفق عليها من الريح الهابّة عليها.
فحسدها سائر حظاياه على لطف محلّها منه وأزمعن إيقاع
مكروه بها من سمٍّ أو غيره.

وبلغ ذلك سيف الدولة فأمر بنقلها إلى بعض الحصون
احتياطاً على روحها وقال:

راقبني العيون فيك فأشفقت
ولم أخل قطُّ من إشفاقِ
ورأيت العذول يحسدني فيـ
ك مجدّاً يا أنفس الأعلاق
فتمنّيت أن تكوني بعيداً
والذي بيننا من الودِّ باقٍ
ربّ هجر يكون من خوف هجرٍ
وفراقٍ يكون خوف الفراق

(١) الثعالبي - يتيمة الدهر - ج ١ - ص ٢٣.

وللأمير الحمداني شعر وجداني جميل كقوله فيها:

أقبله على جزع
كشرب الطائر الفزع
رأى مَاءً فأطعمه
وخاف عواقب الطمع
وصادف فرصةً فدنا
ولم يلتذُّ بالجزع

وكان دون هذه الطبقة من شعراء العصر شعراء آخرون
منهم كشاحم الأديب الشاعر الفنان والوَأواءِ الدمشقي.
أمَّا الأول فمن أصل هندي توفي حوالي (٩٧١م) يتألف اسمه
الغريب من الحروف الأولى للألفاظ التالية: (كاتب-شاعر-
أديب-جلدي-منجم) على اعتبار أنه كان جامعاً لهذه المناقب.
وأمَّا الوَأواءِ (ت.٩٩٩) فدمشقي المنشأ من بني
غسان، اشتهر بقصيدة وصف فيها فتاة تبكي وقد عضت على
شفثها بهذا البيت^(١):

(١) اللؤلؤ- ديوانه- نشر سامي الدهان - دمشق - ١٩٥٠ - ص ٨٤.

واستمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت
وردًا وعَضَّتْ على العنَّابِ بالبرد

وقد حظي بلاط سيف الدولة بجملة من العلماء
منهم الأصبهاني مؤرِّخ الأدب والموسيقا، والفارابي
الفيلسوف والموسيقي.

أمَّا الأول فقد أجازَه سيف الدولة بألف قطعةٍ من الذهب
على النسخة التي قدَّمها إليه بخط يده من مؤلِّفه الضخم «كتاب
الأغاني».

والحقُّ أنَّ هذا الكتاب أجلُّ جدًّا مما يتبادر إلى الذهن من
اسمه المتواضع وقد نُقل عن وزير معاصر من أهل العلم كان
يستصحب في أسفاره حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب
ليطالعها؛ فلما وصل إليه كتاب الأغاني استغنى عنها^(١).

أمَّا الفارابي فصحب سيف الدولة. وكان من أسبق
مفكِّري الإسلام إلى محاولة التوفيق بين الفلسفة اليونانية،
وتعاليم الإسلام^(٢).

(١) ابن خلكان - ج ٢ - ص ١١.

(٢) ابن خلكان - ج ٢ - ص ٥٠١.

وسمّي بالمعلّم الثاني بعد أرسطو، وقد كان طبيباً مرموقاً
ورياًضياً فلكياً وموسيقياً من الطبقة الأولى.

يُروى أنّه ورد على سيف الدولة وكان مجلسه مجمع الفضلاء
فدخل عليه وهو بزّي الأتراك. فوقف، فقال له سيف الدولة:
اجلس. فقال: حيث أنا أم حيث أنت^(١)؟ فقال: حيث أنت.
فتخطّى رقاب الناس حتى انتهى إلى مجلس سيف الدولة فزاحمه
حتى أخرجه عنه وجلس.

وكان على رأس سيف الدولة ممالك وله معهم لسان خاص
لا يعرفه غيرهم فقال لهم بذلك اللسان: إنّ هذا الشيخ قد أساء
الأدب بحضرتي وإنيّ سائله عن أشياء فإن لم يجبني بها
فاستخفوا به وأخرجوه. فقال له أبو نصر بذلك اللسان: أيّها
الأمير. اصبر. فإنّ الأمور بعواقبها. فتعجّب سيف الدولة،
وقال له: أتحسن هذا اللسان؟

فقال: نعم. أحسنه وأحسن سبعين لساناً غيره. فعظم عنده
ثمّ شرع يتكلّم مع العلماء في مجلس سيف الدولة في كلّ فن فلم

(١) وفيات الأعيان - ٢ - ٥٠١.

يزل كلامه عندهم يعلو وكلامهم عنده يسفل حتى صمت
الكلُّ وبقي وحده يتكلَّم.

ثمَّ خلا سيف الدولة بأبي نصر، وقال له: أسمع الغناء، قال نعم.
فأمر سيف الدولة بإحضار المغنِّين. فحضر جمعٌ من أهل هذه
الصناعة بأنواع الآلات، فلم يحرك أحد آتته إلاَّ عابه أبو نصر.

وقال له: أخطأت. فقال له سيف الدولة: هل تحسن من هذه
الصناعة شيئاً؟ قال: نعم، ثمَّ أخرج من وسطه جراباً ففتحه،
وأخرج منه عيداناً، فركبها ثمَّ جسَّ بها فضحك كلُّ من في
المجلس ثمَّ فكَّها وركبها تركيباً آخر وضرب بها فبكى كلُّ من
في المجلس. ثمَّ فكَّها وركبها تركيباً آخر وعمل بها فنام كلُّ من
في المجلس، فتركهم نياماً وخرج وهو أوَّل من صنع الآلة
المسمَّاة بالقانون، والآلة المسمَّاة بالعود.

وقال أبو القاسم عثمان بن محمد العراقي قاضي عين زربه:
حضرت مجلس الأمير سيف الدولة وقد وافاه القاضي أبو نصر
محمد النيسابوري فطرح من كمِّه كيساً فارغاً ودرجاً فيه شعر
استأذن في إنشاده فأذن له فأنشد قصيدة أولها:

جباؤك معتاد وأمرك نافذ

وعبدك محتاج إلى ألف درهم

فلما فرغ من إنشاده ضحك سيف الدولة ضحكاً شديداً
وأمر له بألف درهم. فجعلت في الكيس الفارغ الذي معه.

هذه لمحة خاطفة وبارقة دالة على ما كان يدور في مجلس سيف
الدولة الذي لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع
ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب
إليها ما ينفق لديها على حدّ تعبير الثعالبي في يتيمة الدهر.

وهكذا كانت ندوة الأمير عامرةً بأسباب المتعة العقلية
ولا تخلو من عوامل الظرف والفكاهة^(١) وليس من شك في أنّ
من أسباب رقي الشعر في بلاط سيف الدولة تلك الساحة
النادرة والكرم الوفير الذي كان يخلعه الأمير على شعرائه حتى
أنّ شاعراً من شعرائه هو ابن نباتة السعدي قد ضاق ذرعاً بكرم
الأمير وكثرة عطايه فقال من قصيدة:

(١) د. مصطفى الشكعة - سيف الدولة الحمداني - ص ١٨٣.

قد جدت لي بالله حتى ضجرت بها
وكدت من ضجري أنني على البخل
لم يبق جودك لي شيئاً أوئمله
تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل

وكان جود سيف الدولة لا يقتصر على أدباء حلب وحسب
بل كان يشمل أدباء بغداد وهم في مقارهم دون الحضور إلى
ندوته في حلب.

فقد حمل رسوله من بغداد أبياتاً ثلاثة أرسلها إليه أبو
اسحاق ابراهيم الصابي يقول فيها:

إن كنت ختلك في الأمانة ساعةً
فذمت سيف الدولة المحمودا
وزعمت أن له شريكاً في العلا
وجحدته في فضله التوحيدا
قسماً لو أني حالف بغموسها
لغريم دين ما أريد مزيدا

فلما عاد الرسول من حلب إلى بغداد أخرج لأبي اسحاق
كيساً بختم سيف الدولة فيه ثلاثمائة دينار.

وكما نشأ سيف الدولة على الإعجاب بالشعر الجميل
والتأليف الجيد فإنه كان يعجب بالخط الجميل ويجزل العطاء
للخطاطين الماهرين. ومن المعروف أن جدران قصره كانت
تزدان بالآيات القرآنية وأبيات الشعر المكتوبة بخط مذهب
جميل. وقد كان لسيف الدولة خطاط خاص به من بني مقله
الذين اشتهروا بالخط الجميل.

لقد كان الشعراء في حلب كالعقد النضيد الثمين يتسابقون
في مدح سيف الدولة وكلّ منهم يلقي من التقدير الأدبي
والمادي ما يرضيه فلا عجب إذن أن يضمّ بلاطه أعظم شعراء
العربية من مختلف الأوطان، ولقد فعلت ندوة سيف الدولة
بألوان من المودة حيناً والمشاحنات حيناً آخر.

ومن المشاحنات الطريفة ما كان يجري بين السريّ الرفاء
وبين الخالدين الشعارين. فلقد كان السريّ الرفاء يعتقد أن
الخالدين يسرقان شعره وينسبانه إلى إنشائها. فكان يشكوها إلى
أبي البركان بن ناصر الدولة قائلاً:

أشكو إليك حليفي غارة شهرا
سيف الشقاق على ديباج أفكار
ذئبين لو ظفرا بالشعر في حرم
لمزقاه بأياب وأظفار
إن قلداك بدرّ فهو من لجحي
أو ختمك بياقوت فأحجاري
والله ما مدحا حيّاً ولا رثيا
ميتاً ولا افتخرا إلا بأشعاري

والمهم في ندوة سيف الدولة أنّ الشعراء أضافوا إلى الشعر العربي فنوناً جديدة وموضوعات مبتكرة. وشعر الحرب في مقدمة تلك الفنون. وإمام هذا الفن هو أبو الطيّب المتنبي الذي نعتة النقاد بأنّه قائد عسكر، فهو ينقل القارئ إلى المعركة يشهد صليل السيوف وقراع القنا، وصهيل الخيل وصياح المحاربين ودماء القتلى وتأوّهات الجرحى.

كما ظهر الشعر الفلسفي، وكثير من معاني المتنبي الفلسفية مأخوذة من حكم الفارابي وأبداع الشعراء في وصف الطبيعة

والحياة الاجتماعية من زواياها المختلفة، ولعلّ من خير الألوان الشعرية روميات أبي فراس الحمداني وكلّها شعر جميل عذب جيّاش العاطفة دافق الوجدان، كما ازدهرت الخطابة على يد إمامها عبد الرحيم بن نباتة الفارقي خطيب سيف الدولة كما ازدهرت حركة التأليف في الطب والهندسة والفلك واللغة، وألّف ابن جني كتباً كثيرة أهمّها «الخصائص» وسرّ صناعة الإعراب.

والخلاصة أنّ سيف الدولة كان نعمة كبرى لا على الشعر وحده ولكن على الثقافة في مختلف فروعها.

توفي سيف الدولة عام ٩٦٧م - ٣٥٦هـ فانطفأت في حلب الشعلة الوقّادة التي أضاءت الشام والجزيرة لفترة مباركة من الزمان. وأودع قبره بعد أن وسّد اللبنة التي جمعها من غبار الحروب.

مصادر الدراسة

- ١- ابن خلكان - شمس الدين أبو العباس أحمد محمد بن خلكان -
وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان - ط. مصر ١٢٩٩هـ.
- ٢- ابن العديم - بغية الطلب في تاريخ حلب - تحقيق د. سامي الدهان.
- ٣- الثعالبي - يتيمة الدهر - دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٤- ديوان أبي الطيب - شرح العكبري - تحقيق: مصطفى السقا.
- ٥- السري الرفاء - ديوان شعر - ط. مصر.
- ٦- السيوطي - بغية الدعاة - ط. الخانجي.
- ٧- العباس الحسيني الموسوي - نزهة الجليس ومنية الأديب
النفيس - إيران - ١٣٧٥هـ.
- ٨- الوأواء الدمشقي - اللؤلؤ - نشر سامي الدهان - دمشق ١٩٥٠.
- ٩- د. فيليب حتي - تاريخ العرب - بيروت ١٩٤٩.
- ١٠- د. مصطفى الشكعة - سيف الدولة الحمداني - جامعة
عين شمس.

مجلس ولادة
بنت المستكفي
٩٩٤ - ١٠٩١

أميرة وشاعرة أندلسية عربية من بيت الخلافة الأموية في الأندلس ابنة الخليفة المستكفي بالله، وكانت واحدة زمانها المشار إليها في أوانها حسنة المحاضرة، مشكورة الذاكرة، كما يقول عنها المقرئ التلمساني في سفره المهم «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب».

اشتهرت بالفصاحة والشعر، وكان لها مجلس مشهود في قرطبة يؤمّه الأعيان والشعراء ليتحدّثوا في شؤون الشعر والأدب. وقد كانت أمّها جاريةً إسبانية اسمها «سكرى» ورثت منها بشرتها البيضاء، وشعرها الأصهب، وعينيها الزرقاوين.

وكانت تخالط الشعراء وتجالسهم بل وتنافسهم. يذكرها ابن بسّام، وهو واحد من أهمّ من ترجموا لولادّة، في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة فيقول عنها: «طبقت شهرتها الآفاق، وتطائر ذكرها حتى صارت مدار الحديث اقتراناً بكلّ من اقترب منها. فابن زيدون لُقّب بصاحب ولادّة على الرّغم من شهرته بذى الوزارتين. وهي صاحبة مُهَجّة القرطبية التي كانت شاعرة أيضاً، ولا تقلُّ عن ولادّة جمالاً».

أخبارها في كتب التراث: أورد ابن بسّام في كتابه الذخيرة، والمقري في نفح الطيب «سبعةً وعشرين بيتاً» من خلال إحدى عشرة مقطوعة. وما أورداه عن شخصيتها وصفاتها الجسدية والنفسية قليل.

يقول ابن بسّام: وكانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها حضور شاهد وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر. وكان مجلسها بقرطبة متدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر يعيشو أهل الأدب إلى ضوء غُرَّتْها، ويتهاك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها إلى سهولة حُجَّابها، وكثرة متابها. تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم

أنساب، وطهارة أثواب على أنها سمح الله لها. أطرحت
التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل.

كتبت - زعموا - على أحد عاتقي ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالي
وأمشي مشيتي وأتبه تيهها

وكتبت على الآخر:

وأمكنُ عاشقي من صحن خدي
وأعطي قبلي من يشتهيها

ثم يقول: هكذا وجدت هذا الخبر. وأبرأ إلى الله من عهدة
ناقليه، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه.

أما المقري: فيعلق على البيتين السابقين بقوله: وكانت مع ذلك
مشهورة بالصيانة والعفاف وقد قالت عن نفسها هذين البيتين:

إني وإن نظرت الأنام لبهجتني
ككظباء مكة صيدهن حرام
يُحسبن من لين الكلام فواحشاً
ويصدُّهنَّ عن الخنا الإسلام

بعد مقتل والدها المستكفي جعلت ولادة دارها منتدى
لرجال الأدب ولا شك في أن ابن زيدون كان في جملة الشعراء
الذين يقصدون متناها الأدي وهو في ميعة الشباب.

وفي هذا المنتدى تمكنت بينهما أوامر الصداقة ووقع في
أشراك حبها، فاشتهدا بقصة حب تعدُّ واحدةً من أجمل قصص
الحب في تاريخ الأندلس، وتاريخ الأدب العربي بصفة عامة
ومما أورده ابن بسام على لسان ابن زيدون قال: قال أبو الوليد:
كنت في أيام الشباب وغمرة التصابي هائماً بغادة تدعى ولادة.
فلما قدر اللقاء وساعد القضاء كتبت إلي:

تَرَقَّبُ إِذَا جَنَّ الظَّلامَ زيارتي
فإني رأيت الليل أكرم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا
وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر

فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عنبره أقبلت بقيد القضيبي
ورددت كالكتيب، وقد أطبقت نرجس المقل على ورد الخجل، وبتنا
بليلة نجني أقحوان الثغور، ونقطف رمان الصدور.

فلما انفصلت عنها صباحاً كتبت لها ارتياحاً:
ودّع الصبر مُحِبُّ ودّعك
ذائعٌ من سرّه ما استودعك
يقرع السنّ على أن لم يكن
زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناءً وسنا
حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطلّ بعدك ليلى فلكم
بتُّ أشكو قصر الليل معك

تختار ولأدّة ساعة متأخّرة من الليل تجعلها موعداً للقاء
حبيبها بعيداً عن أعين الرقباء لأنّ الليل كما ترى أكتم للأسرار.
وتكشف في البيت الثاني عن جانب من شوقها الذي
يحمله سرّها وفي سياق النصّ يمكن أن يكون ما بها من مكنون
الوجد حيال ابن زيدون ما يجعل البدر خاسفاً أو مختفياً
والليل لا يُظلم والنجم لا يسير وهو لا يطيق فراقها بعد

أن ودّع بوداعها الصبر، وبعد أن فضحت الصبّ
المحبّ عيونه ولم يعد سرّاً ما استودعها بعدما فعلاه بتأثير
الخمر التي تفضح الأسرار.

وقد استوقف النص الوارد في ذخيرة ابن بسّام الدكتور
إحسان عباس محقق الذخيرة يقول مرتاباً: «هذا النصّ
يستوقف النظر أولاً على لسان ابن زيدون، وثانياً لأنّه مصنوع
في قالب مقامه، وأسلوبه لا يشبه أسلوب ابن زيدون».

ويحفظ لنا ابن بسّام جانباً آخر من شخصية ولادة من خلال
ما يورده من أخبارها وهو جانب المرأة الغيور صاحبة ردود
الأفعال المتشنّجة.

ذلك ما أورده ابن بسّام على النحو التالي: قال: قال أبو
الوليد وكانت عتبه قد غتّنا:

أحبتنا إني بلغت مؤملي
وساعدني دهري وواصلني جبي
وجاء يهنيني البشير بقربه
فأعطيته نفسي وزدت له قلبي

فسألتها الإعادة بغير أمر ولأدة. فخبأ منها بريق التبسم،
وبدا عارض التجهّم وعاتبته جاريتها السوداء الجميلة
بقسوة فقلت:

وما ضُربْتُ عتبي لذنبٍ أتت به
ولكننَّما ولأدةً تشتهي ضربي
فقامت تجرُّ الذَّيْلَ عائرةً به
وتمسح طلَّ الدمعَ بالعنمِ الرطبِ

ثمّ يصف لنا ابن زيدون بعد ذلك تأثير غضبها وموقفها
حين يقول: «فتنا على العتاب في غير اصطحاب، ودم المدام
مسفوك، ومأخذ اللهو متروك، فلما قامت خطباء الأطيّار على
منابر الأشجار، وأنفت من الاعتراف، وباكرت إلى الانصراف
وَشَتَّ بمسك الأنفاس على كافور الأطراس».

وهكذا أنهار هذا الحب. وبالخبر على ورق الكافور كتبت
ولأدة لابن زيدون أبيات شعر تصف تلك الواقعة التي
عصفت بحبّها وهي تقرّر هجره وتظنُّ كلَّ الظنِّ أنّ ابن زيدون
قد هوى جاريتها تقول فيها:

لو كنت تنصفُ في الهوى ما بيننا
لم تهـوَجاريـتي ولم تتخـيِّر
وتركت غصناً مثمراً بجماله
وجنحت للغصن الذي لم يُثمر
ولقد علمت بأنني بدر السما
لكن دُهَيْتُ لشقوتي بالمشتري

وللمستشرق الإسباني «هنري بيريس» تعليق طريف
على أبيات ولأدّة يبيّن فيه عن كونها أنموذجاً للمرأة الأندلسية
التي لها موقف من السوداوات حين يقول: «ويظهر لنا
الشعر أيضاً مفهوم النساء الأندلسيات عن الحبّ الذي يمارسه
أزواجهنّ مع السوداوات».

لقد هام ابن زيدون بولأدّة وملكته عليه قلبه، وتعلّقت به
وأحبّته وجهرت بعشقها له تقول:

ألا هل لنا بعد هذا التفرُّق
سبيلٌ فيشكو كلُّ صبٍّ بما لقي

وقد كنت أيامَ التزاوِرِ في الشِّتَا
أبيت على جمرٍ من الشوق محرق
فكيف وقد أمسيت في حالِ قطعةٍ
لقد عَجَّلَ المقدور ما كنت أتَّقِي
تمرُّ الليالي لا أرى البين ينقضي
ولا الصبر من رِقِّ التشوُّقِ معتقِي
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً

بكلِّ سكوبٍ هاطلٍ الويلِ مُغْدِقِ

إلَّا أنَّ هذا الغرام لم يدم طويلاً لأسباب كثيرة، أرجحها هو
أنَّ ابن زيدون تعلَّق بجاريتها السوداء البارعة في الغناء
والجميلة، وحاول ابن زيدون استدراار عطفها إلَّا أنَّ ولادة
لم تأبه به وأرادت أن تجازيه، فألقت شباكها على رجل قليل
الذكاء وواسع الثراء هو الوزير أبو عامر بن عبدوس. ثمَّ
قطعت علاقتها مع ابن زيدون.

ولولادة نادرة طريفة يرويها ابن بسَّام في كتابه الذخيرة
فيقول: مرَّت بالوزير أبي عامر بن عبدوس المتقدم الذكر،

وكان بقرطبة أعيان المِصر، وبعض من هذى باسمها، وتعرّف على حكمها، وأمام داره بركة دائمة تتولّد عن كثرة الأمطار، وربما استمدّت بشيءٍ مما هنالك من الأقدار. وقد نشر أبو عامر كُميّه، ونظر في عِظفيّه، وحشر أعوانه إليه فقالت له يا أبا عامر:

أنتَ الخِصيبُ وهذه مصر

فتدقّقاً فكلاهما بحر

فتركته لا يجير جواباً، ولا يردُّ طرفاً.

واضح من خلال خطابها ذكاؤها وهي ترى وزيراً يفعل ما يفعله العوام مشمراً كُميّه وسط أعوانه لإصلاح أمر بركة عِظنة قدرة. فما كان منها إلا أن سخرت منه جاعلةً من بركته ومنه شخصياً بحراً يتدقّق بالأقدار.

أمّا ابن زيدون فقد برز وزيراً عندما انقطع إلى ابن جمهور. وقد اتّهمه ابن جمهور بالميل إلى المعتضد بن عبّاد فحبسه؛ ولكنّه هرب، واتّصل بالمعتضد صاحب إشبيلية فولّاه وزارة، وفوّض إليه أمر مملكته، فأقام مبعجلاً مقرباً إلى أن توفي فيها في أيام المعتمد بن المعتضد عن عمر بلغ الثمانية والستين عاماً. وأخبار

ابن زيدون مع ولادة كثيرة. من ذلك ما أورده المقرئ في
نفتح الطيب نقلاً عن كتاب «فلائد العقبان للفتح بن خاقان»
حين يقول:

فرَّ إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها، فوافها والربيع قد خلع
عليها بروده، ونشر سوسنه ووروده. فتشوق إلى لقاء ولادة
وحنَّ فكتب إليها يصف فرط قلقه لأنه جاهر بعدائه لملك
قرطبة ولبنى جهور.

ويؤكد ودها ويعتذر من فراقها. وهي قصيدة ضربت في
الإبداع بسهم، وطلعت في كلِّ خاطرٍ ووهم، ذاع صيتها في
الآفاق وأصابها الخلود:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنثم وبنافما ابتلت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
رأياً ولم نتقلد غيره ديننا

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسي لولا تأسينا
أولي وفاء وإن لم تبذلي صلةً
فالطيف يقنعنا والذكر يكفيننا
عليك منا سلام الله ما بقيت
صبايةً بك تُخفيها فتخفيننا
ليُسقَ عهدكم عهدُ السرور فما
كنتم لأرواحنا إلاً رياحيننا
يا ساري البرق غادِ القصر فاسقِ به
من كان صرفَ الهوى والودِّ يسقينا

وقد وقع في حبِّ ولادة ابن زيدون وأبو عبيد الله القلاسي،
وأبو عامر بن عبدوس. وقد هاجمها ابن زيدون بقصائد لاذعة
فانسحب ابن القلاسي، ولكنَّ ابن عبدوس غالى في التودُّد إليها
وأرسل لها رسالةً ليستميلها إليه. فلما علم ابن زيدون كتب إليه
رسالة على لسان ولادة. وهي الرسالة المعروفة بالرسالة الهزلية
التي سخر منه فيها، وجعله أضحوكةً على كلِّ لسان.

ومما أورده المقرئ لابن زيدون مخاطباً ابن عبدوس لاشترائه
معه في هواها:

أثرت هزبر الشرى إذ ربض
ونبتهه إذ هدا فإغتمض
وما زلت تبسط مسترسلاً
إليه يد البغي لما انقبض
حذار حذار فإن الكريم
إذا سيم خسفاً أبى فامتعض
وإن سكون الشجاع النهو
س^(١) ليس بانعه أن يعرض

ومنها:

وغررك من عهد ولادة
سراب تراءى وبرق ومض

(١) النهوس: الأسد.

هي الماء يعزُّ على قابضٍ

ويمنع زبدته من محض^(١)

لقد أحبَّت ولادة ابن زيدون وقالت فيه شعراً ينم عن حبِّها

وشوقها منه:

لحافظكم تجرحنا في الحشا

ولحظنا يجرحكم في الخدود

جرحٌ بجرح فاجعلوا ذابذا

فما الذي أوجب جرح الصدود

وحينما سمع ابن زيدون ما كان يقوله الناس بحقه، إذ عيروه بأنَّ

أبا عامر ابن عبدوس قد أخلفه في حبِّ ولادة انبري يهجو قائلاً:

أكرم بولادة ذخر المذخر

لو فرقت بين بيطارٍ وعطار

قالوا: أبو عامرٍ أضحي يُلمُّ بها

قلت الفراشة قد تدنو من النَّار

(١) محض فلاناً الودّ: أخلصه والرجل: سقاه المحض وهو محاض من

اللبن ونحوه الخالص الذي لم يخالطه غيره.

عَيْرَ تَمُونَا بَأَن قَد صَار يَخْلِفْنَا
فِي مَن نَحْبُ وَمَا فِي ذَاكَ مَن عَار
أَكْلُ شَهِيٍّ أَصَبْنَا مَن أَطَايِبِهِ
بَعْضًا وَبَعْضًا تَرَكْنَا مِنْهُ لِلْفَارِ

وكلمة «الفار» لقب من ألقاب ابن عبدوس، ولكن ابن عبدوس لم يصنع إلى تعريضه ووعيده. وكذلك ولادة التي غضبت منه غضباً شديداً بعد تعلقه بجاريتها السوداء، ولم ترق لألام حبه. فيستمر في الأنين والشكوى. وهنا يبدو لنا إخلاصه لحبيته، كما تتكشف لنا نفسية معشوقته المتهتكة.

ويكتب لها ابن زيدون كثيراً من القصائد ذاكراً حبه متشوقاً لأيامه السعيدة. ولكن ولادة تُصمُّ الأذن وتغلق القلب.

وهكذا تبدو قصتها مع ابن زيدون، ومع ابن عبدوس، ومن حام حولها من الأدباء والشعراء تفوق في عنفها قصص جورج صاند وقصص الكثيرات ممن اشتهرن بالحب.

إنَّ المجتمع الأندلسي كان خليطاً من الأجناس والأثنيات التي تشكلت فسيفساء غير متجانسة.

ورغم أنّ عصر الطوائف كان عصر صراعات واقتتال فإنّه
كان أيضاً عصر علم وفكر وأدب.

ولقد ظهر فيه شاعرات وأديبات ومغنيات جميلات مثل ولادة.
من أشهرهنّ مهجة التيانية القرطبية التي كانت من أخفّ الناس
روحاً وقد علقت بها ولادة وتولّت تأديتها. ونزهون الغرناطية،
وهند جارية أبي محمد الشاطبي التي كانت أديبة وشاعرة كتب إليها
أبو عامر ابن نيف يدعوها للحضور عنده ومعها عودها:

يا هند هل لك في زيارة فتيةٍ

نبذوا المحارم غيرَ شرب السلسلِ

سمعوا البلابل قد شدوا فتذكروا

نغماتِ عودك في الثقل الأول

فكتب إليه في ظهر رقعته:

يا سيداً حاز العلا عن سادةٍ

شمّ الأنوف من الطراز الأوّل

حسبي من الإسراع نحوك أنني

كنت الجواب مع الرسول المقبل

ولم تكن ولادة فريدة في الحرية والجرأة في التعبير عن
عواطف الحبّ واللّهو بل كان يشاركها في هذه الظاهرة كثيرات
من حرائر ذلك العصر.

وقد ذكر الرواة لحفصة بنت الحاج من أشرف غرناطة شعراً
لا يقلُّ مجاهرة عن شعر ولادة قالت:

ثنائي على تلك الثنايا لأنني
أقول على علمٍ وانطقُ عن خُبْرٍ
وأنصفها لا أكذب الله إنني
رشفت بهاريقاً أرقاً من الخمر

وهكذا عاشت ولادة مع ابن زيدون قصة حبّ فريدة
شحذت خياله الغني، وأثرت في إبداعه.

يقول غراسيه غوميس في القصيدة النونية لابن زيدون،
أجمل قصيدة حب نظمها الأندلسيون المسلمون، وغرّه من غرر
الأدب العربي كلّهُ.

لقد فتحت ولادة صالوناً أدبياً سبقت به شهيرات فرنسا
بعده قرون تنافس فيه الشعراء للتودّد إليها. وظلّت طيلة

حياتها العامرة بالسنين قمراً يطلع في عيون خطّاب ودّها،
وشمساً تشرق وتغيب في خيال عشّاقها.

ولولا هذا الحب لما وصل هذا الشعر الجميل. لقد كانت
ولادة مصدر إلهام لأفضل شعر كتب في العشق في الأندلس
لقد ثارت على تقاليد المجتمع، فنزعت الحجاب، وفتحت
قصرها للعظماء والأدباء والشعراء والفنانين؛ فأصبحت
شخصية مرموقة في المجتمع الأندلسي بخصائصها التي تميّزت
بها من جمال وثقافة وثروة. وقد وصفها عبد الله بن مكي، وكان
ممن يتردّد على صالونها الأدبي بقوله: كانت واسعة الثقافة،
غزيرة العلم وبخاصة في فنون الشعر والأدب مما أتاح لها
مساجلة الأدباء، ومطارحة الشعراء ومناظرة العلماء.

وغير ابن مكي كثيرون كالمقرّي وابن نباتة وابن بسّام وهذا
ابن خاقان الأديب الوزير يقول: «كانت من الأدب والظرف
بحيث تختلس القلوب والألباب، وتعيد الشيب إلى الشباب».

المراجع

- ١- ولادة وابن زيدون - عبد الرزاق مجيد الهلالي - ١٩٩٧.
- ٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - أحمد بن محمد المقري التلمساني - ترجمة: إحسان عباس - بيروت - ١٩٦٨.
- ٣- ولادة ملهمة ابن زيدون - د. رشا غانم.
- ٤- الأعلام - خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - لبنان.
- ٥- في الأدب الأندلسي - د. جودت الركابي - دار المعارف بمصر ١٩٦٦.
- ٦- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - ابن بسّام.
- ٧- ديوان ابن زيدون - القاهرة - ١٩٥٧.

فهرس

الصفحة

مقدمة	٥
مفهوم المجالس	١٣
صورة عكاظ في العصر الجاهلي	٢١
الشعر في بلاط الغساسنة والناذرة	٦٧
سوق المربد في البصرة	٩٥
مجالس معاوية بن أبي سفيان	١١٧
مجالس عبد الملك بن مروان	١٣٧
السيدة سكينه بنت الحسين	١٥٧

الصفحة

١٧٧	مجالس هارون الرشيد.
٢٠٥	مجالس المأمون.
٢٢١	مجلس الصاحب بن عباد.
٢٣٥	مجلس المعتمد بن عباد.
٢٥٥	مجالس سيف الدولة الحمداني.
٢٨١	مجلس ولادة بنت المستكفي.

محمد جميل الحطاب

- من مواليد اللاذقية عام ١٩٤٨ م.
 - يحمل إجازة في الآداب - قسم اللغة العربية من جامعة دمشق ١٩٦٩ م ودبلوم الدراسات العليا من جامعة تشرين ١٩٨٢ م.
 - أديب وكاتب له عدة مؤلفات أهمها:
 - ١ - العيون في الشعر العربي.
 - ٢ - كلمات متوهّجة.
 - ٣ - دراسات في الأدب والفكر.
 - ٤ - معجم معاني أسماء المدن والقرى في محافظة اللاذقية.
 - ٥ - معجم معاني أسماء المدن والقرى في محافظة طرطوس.
 - ٦ - جنات المعاني في الأسماء والكنى والألقاب.
 - ٧ - القلب والحواس الخمس في الشعر العربي.
 - ٨ - قطوف ثقافية.
 - ٩ - جماليات اللسان في الصمت والكلام.
- إضافة إلى عشرات المقالات في المجلات والصحف.

الطبعة الأولى / ٢٠١٨

كلمة الغلاف

تتناول هذه الدراسة المجالس الأدبية عند العرب وترسم لوحةً متكاملةً تتلاقى فيها ملامح الحضارة والأحداث التاريخية، والتنافس الأدبي، والانبهار أمام البليغ من الكلام. وقد جاءت في ثوبٍ موسوعيٍ عُنِي بالبحث عن الأجواء الأدبية الخاصة التي تُغني القارئ عن الرجوع إلى الكتب والمصادر الكثيرة.